بسام شمس الدين

نهاية رَجُل غاضب

رواية

نـهاية رَجُل غاضب

(رواية)

بسام شمس الدين

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية صنعاء

(- ٢٠٢٠م)

الطبعة الأولى : صنعاء ٢٠٢٠م

لوحة الغلاف: هشام عبدالحميد العلفي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الفصل الأول

لم أكن لأكف عن النعيب كبومة لولا عرفت أن هند الصغيرة سترافقني إلى قريتي، وهي ليست صغيرة جداً، بل كنا نبدو في عمر واحد، في حوالي الثانية عشر عاماً، كانت ذات وجه بريء محبوب، ثرثارة، لكن كلامها لا يُمَل، وتصرفاتها توحي بامرأة ناضجة، عيبها الوحيد أنها مدللة مستحوذة، تحب امتلاك أي شيء يعجبها، وقد افتعلت ضجة كبيرة لكي تعيقني عن الرحيل، وكأني دمية لا تريد أن تفارقها، ولم يكن سلوكها هذا لطيفاً، ولكنه صادف هوى في نفسي، فطلبت منهم أن يسمحوا لها أن تأتي للعيش معنا في القرية، حيث تستطيع أن تذهب إلى المدرسة لتتعلم.

تبادل والداها النظر، وبدت أمها أكثر قلقاً وحيرة، وأفصحت أن أمر تعليمها مازال يؤرقهم، لخلو تلك البرية من المرافق الحكومية. ولكن فراقها في غاية الصعوبة، وأكد زوجها أن بوسع ابنته أن تقضي معهم عطلات الصيف، وبالكاد وافقت الأم على مضض. بقي أمر واحد يشغل الزوجين، هل بوسع أمي أن تسمح بانضمام الفتاة إلى العائلة؟ فأوضحت لهما أن أمي ستكون سعيدة جداً، وأن موافقتها أمر محتوم، لأنها امرأة طيبة بالفطرة، وسخية النفس، وصبورة، وليس لديها تحفظات على أي شيء، بدليل أنها قبلت الزواج من أبي على عِلّاته، وهي الفتاة الوحيدة التي جازفت بالارتباط به، ولم تخشَ كالأخريات من نوبات غضبه المسعورة، ولا شك أنها ستكون ممتنة من الزوجين اللذين أنقذا حياتي في البرية، ناهيك أن الفتاة هي ابنة عمتي، وستسر

كثيراً لحصولها على جرّة عسل محلي ذات جودة عالية، فهي وإن كانت لا ترجو أي مقابل على إيواء طفلة محبوبة، إلا أن الأصول تفرض على الزائر ألا يأتي بيدين خاليتين من الهدايا، ومهما يكن سأبقى حارسها وصديقها المقرَّب الوحيد، لسبب بسيط وهو أني لم أعثر عليها عفو الصدفة ملقاة على قارعة الطريق، بل كدت أن أخسر حياتي في سبيل الوصول إليها، لذلك لن يمس أحدٌ شعرة من رأسها بسوء مادمت حياً.. ويتحتم ألا تقلقوا عليها مطلقاً.

انتهيت من خطابي الغريب الذي لا أدرك أي شيطان تكلم به على لساني، فضحك الزوجان ملياً، وقالت عمتي فوزية متبسمة:

ـ نعم، أعول على زيد في حمايتها، لن يدع أي وغدٍ يقترب منها.

وعلَّق زوجها على كلامي قائلاً:

ـ اطمئن أيها الماكر، لن آتي إلى منزلكم خاوي اليدين.

لم أقل شيئاً، وتولت امرأته الرد عليه قائلة:

ـ كما ترى، إنه رجل حقيقي، وقد جاء إلى هنا سالكاً هذه البرية الموحشة، ولا ينبغي أن يعود دون هند.

ضحك الرجل، وقال باستسلام:

ـ نعم، إنها جائزته، لا أظن ابني مالك يستطيع أن يقطع مسافة طويلة في البرية على قدميه.

رفع مالك رأسه عن دفتر حساباته، قائلاً بضيق:

ـ أنا الملام على كل حال! كان عليّ أن أدعه ينضم إلى قطيع القرود.

ـ أنا لا ألومك...

ـ لكنك أخطأت يا أبي.

ـ عجباً، بِمَ أخطأت؟

أجاب بهدوء دون أن يرف له جفن:

ـ لا يعقل أن ترمي ابنتك في منزل رجل نفاكما إلى البرية.

ـ ينبغي أن تأخذهما إلى القفر الأعلى في الغد، وإن استقبلوك بشكل حسن فالتمس منهم أن يسمحوا لأختك بالبقاء للدراسة.

ـ لِمَ علي أن أسير إلى قرية بغيضة وأخاطب أشخاصاً لا أطيقهم؟ أتظنهم يستقبلوننا بالأحضان؟

رفع والده ذراعه في الهواء قائلاً بتأثر ونفاد صبر:

ـ هذا لا يجوز، يتحتم أيضاً أن تعرج على منزلنا لتقف على أحوال عائلتي، أعرف أنها زيارة متأخرة مشئومة...

ـ اذهب أنت إن شئت.

راعتني تلك النبرة الحادة المتعالية التي يكلم بها مالك والده، وفكرت لأول وهلة بأن زوج عمتي سينقض عليه ليؤدبه كما يفعل الآباء في قريتنا، ولو أن هذا الرجل هو أبي لن ينجو مالك من ركلة تطيره في الهواء بضعة أمتار، لكنه تبسم مجيباً بفتور:

ـ أتظنني لا أود ذلك؟ يا لك من أحمق! ألا تدرك أنني قطعت لهم عهداً ألا أدخل القفر الأعلى دون دعوة؟

ـ هذا لا يطاق.

قال مالك ذلك بصوت أقل حِدّة وسكت، ويبدو أنه أحس بمقدار غير معلوم من الخجل، رغم أن ملامحه بدت على حالها متجهمة وغير ودودة، بدا حروناً مثل شيطان رجيم، يميل إلى الغضب والتسلط، ولا أدري من أين اكتسب تلك السمات المتطرفة، فهو يعيش بمنزل هادئ، وسط عائلة لطيفة، ذكرني عناده بأبي، وكما يقال في منطقتنا فإن ابن الأخت إن لم يأخذ من صفات أبيه وأمه، فإنه يأتي مماثلاً لخاله في شكله أو طباعه، لا أدري هل هذا صحيح أم لا، لكنه فعلاً يشبه أبي في غضبه ونبرات صوته الحادة، ولما لاحظ زوج عمتي وجومي اقترب مني وهمس بصوت خفيض:

ـ لا تغتم، فأنا رجل يحترم وعده.

لا أنكر أنني استأت من الشاب وبغضته، ليس لغضبه وعناده، فالغضب والحَرَن شيمتان قديمتان في عائلتي، بل لأنه لا يحبذ أن تعيش أخته في منزلنا. لحسن الحظ إنه لا يملك القرار النهائي في هذا الشأن، عرفت لاحقاً أنه عاش في منزل أحد أقارب والده بمدينة ذمار، وهناك تلقى تعليمه حتى الصف التاسع، لكن قريبهم الطيب توفي مخلفا زمرة من الأولاد الأشقياء الذين شرعوا يختصمون على الميراث، ولا يهتمون بشئون أقاربهم، لذا عاد مجبرا إلى البرية ليهتم بشئون المنحل.

***

في الصباح، حشرت هند ثيابها في حقيبة جلدية قديمة تليق بتلك البرية القاحلة، وجمعت دُماها في سلّة يدوية خفيفة لها مقبض رشيق محدب، ثم طلبت من والدها أن ينزع خشب مدرهتها[1] والحبلين الجلديين المتصلين بالشجرة، وأصرَّت أن تأخذ قفيرين من النحل تملكهما إلى منزلنا، وتشاجرت مع أخيها مالك الذي ظنَّ أنها فكرة حمقاء، وظلّت تصرخ بصوت مزعج حتى فازت في النهاية بمؤازرة والديها، وهذا جعله غاضباً متورد الوجه، وسمعته يتوعدها بصوت خفيض بأن يلقنها درساً لن تنساه، فقلت لنفسي بتبجح وكأني أخاطبه: ماذا بوسعك أن تفعل أيها الشاب البغيض؟

جلب زوج عمتي جرّة عسل من الصنف الممتاز، وأضافت عمتي فوزية واحدة أخرى، ليقدمهما مالك إلى أمي كهدية عند وصوله، وتقدران بثمن باهظ، بحيث زم الشاب شفتيه وقطب حاجباه، ووقف بالقرب من السيارة متجهماً، وما لبث أن طلب منا الإسراع إلى أماكننا صارخاً، فاقترب منه والده، وزوده بمعلومات عن الطريق الذي سنسلكه للوصول إلى قريتنا، وسمعناه وهو يحثه بإصرار على الاعتناء بنا جيداً، وكأنه موقن بأنه لن يفعل، فأجاب الشاب بضيق:

ـ لا داعي للقلق، سوف ينالان عنايتي الكاملة.

ولمعت عيناه بخبث، ثم تبسم على نحو غامض موحياً بالثقة، وانتظر بفارغ الصبر لانتهاء لحظات الوداع الأخيرة، كانت عمتي فوزية تعانقنا دون تمييز وكأننا شقيقان، رأيت دموعها تطفو على سطحي عينيها الجميلتين، فوعدتها أن أزورها في عطلة الصيف القادم، رغم

[1] المدرهة: المرجيحة.

أني غير واثق أن أحداً سيسمح لي بالعودة إلى تلك البرية ثانية، وصافحنا زوجها ببرود مبدياً رباطة جأشه كرجل شجاع كثير الأسفار، ثم صعدنا إلى المقعد الخلفي، وأنا ممسك بالكيس الأبيض الذي يحوي بقايا جسد أبي، وقاد مالك السيارة بسرعة معقولة، ولما غاب عن عيني والديه انطلق كالمجنون، وقام بكثير من الالتفافات المتهورة، وصار يمر على الحفر والبقع الوعرة التي تتوسط الطريق، ما جعل المركبة تميل وكأنها تسير على إطارين فقط، ثم أوهمنا بأن الفرامل فيها لا تعمل، وأننا على وشك السقوط من منحدر، وبات يضحك بتشفٍ وهو يسمع صراخ هلعنا الشديد، وخاطبني بشماتة:

ـ ماذا جرى أيها الشجاع، ألا تخجل عندما تصرخ أمام صديقتك؟

وأخذت هند تنعته بالغليظ والفظ والحسود، وتهدده أن تشكوه إلى والديها، وأحدث هذا التهديد تأثيراً حسناً، فقد كف عن عبثه، ولكن لبعض الوقت، حيث عاد إلى إذلالنا وإخافتنا بقيادته الطائشة المتهورة، وكأن هذا جزء من لعبة خبيثة تسليه وتمتعه.

كادت المسكينة هند أن تفقد عقلها، وظلت تنظر إلي وكأنها تطلب مني أن أفعل شيئاً لإيقاف أخيها عند حدوده، ولكني كنت عاجزاً تمام العجز، يداي متشبثتان بحاجز المقعد الأمامي، وبالكاد أستطيع أن أحافظ على توازني، وأحيانا نجد أنفسنا ملتصقين يمسك أحدنا بالآخر، وأكثر ما كان يغيظني ويجعلني أفكر في خنقه هو ضحكه وكلامه المستفز، وتعليقاته غير المفهومة، كان يجزم أننا مبتهجان بالانزلاق على بعضنا، يقول ذلك بخبث وتهكم غريبين دون أن نفهم شيئاً مما يعني، وأخيراً، وبعد مدة طويلة ظننتها دهراً توقف فجأة عن العبث

بأعصابنا، وكأنه شبع من التهور أو أصيب بالملل، أو أن اللعبة انتهت. فارتسمت على ملامحه هالة من الأسى والشفقة، وأفصح لأخته إن ذلك هو الدرس الذي وعد أن يلقنها إياه، وإنه لن يعاود الكرّة، إلا حين يقترف أحدنا ذنباً، وبالفعل التزم بوعده، فجفّت حبيبات العرق عن سطح جبينه القرمزي، واختفى الخبث عن عينيه الماكرتين، وكذلك زال الاحتقان عن وجنتيه، وحل مكانهما بياض مشرب بتورد طفيف، وصار يراقب الطريق لائذاً بالصمت، ما دعانا إلى تصفح الشعاب الجافة والأرانب البرية، والقرود وهي تقفز على أشجار السدر العملاقة، أو تظهر وسط الهضاب الجرداء ضمن قطيع فوضوي يسير نحو مكان مجهول.

كنا نمر خلال تلال صغيرة في صعود غير ملحوظ، وأحياناً نصادف مساكن كئيبة، وسبلًا متشعبة غامضة، ما يجعلنا نقع في حيرة شديدة، ونسأل أنفسنا أي طريق نسلك؟ وكان مالك مخولاً بمخاطبة الرعاة، ومن نصادفهم من سكان تلك البراري المتعرجة، وقد خول لنفسه هذا العمل الذي يبدو في الظاهر سهلاً، لكنه في الحقيقة أصعب من أكبر مسائل الرياضيات، وذلك لأن السير في طريق خاطئ قد يقودنا إلى براري مجهولة لا يعلم إلا الله مدى حجمها ووحشيتها وجفافها، وكنا نصغي إليه وهو يتحدث إلى أشخاص هزال، سمر الوجوه، عليهم أسمال خفيفة بحيث تظهر سيقانهم الناحلة، وصدورهم العارية وأذرعهم المكتظة بالجروح القديمة، وكان لا يتركهم حتى يحفظ أسماء الأماكن التي سنلقاها وتقودنا إلى وجهتنا، ويأخذ منهم كل العلامات. كان يحدثهم بلهجتهم المحلية التي لا تكاد تفهم، مشيراً بأصابعه إلى قمم التلال القريبة والبعيدة، وكانوا يغضبون ويشتمون حين يلحف

بالسؤال، لكنه لا يكترث. كانت لهجته تحمل اللكنة ذاتها بتلحين طفيف في الصوت، وتكسير في الحروف، ولا غرو في ذلك، فهو وإن بدا غريباً في عيونهم مازال أحد سكان القفر الأسفل، ومهما تشعبت البراري وابتعدت، فإن اللهجة والكلمات الدارجة هي نفسها هنا أو هناك، وصارت هند تترجم لي ما يقال، وتتهكم من جهلي بتلك الكلمات المحلية، فأنا من القفر الأعلى، ولكنها لاحقاً بعد أن وصلت إلى قريتي عذرتني، وكان علي أن أشرح لها معاني بعض الألفاظ، أما ما سمعناه ورأيناه هنا فقد جعلنا في غاية الخوف، وأحسسنا بأننا عالقون وسط أدهى مكان يمكن للمرء أن يتخيله، وقد نتوه في أحشائه ما لم نكن بمنتهى الحذر.

متاهات من طرق غريبة، وأودية ميتة وتلال وشعاب متشابهة، وحيوانات برية متنوعة تسرح في مجاميع كبيرة وصغيرة، وقليل من السكان المحليين الذين يعيشون وسط ملاجئ هشة متباعدة مصنوعة من العيدان والأغصان بحيث تشبه أعشاش العصافير، وجميعهم رعاة، يربون الماشية، ويلبسون جلودها، ويصطادون الأرانب وطيور الحجل والعُقَب، ونصحنا شيخ طاعن السن ألا يأتي الليل دون أن نكون قد وصلنا إلى "مفرق رهيش"، وحذرنا من المهربين وقطاع الطرق الذين يتخذون من تلك البراري ملاذاً لهم، وليس هناك ما هو أشد فداحة من اجتياز تلك الطرق ليلاً بواسطة سيارة، حيث تجذب أضواؤها الانتباه، فيأتي أولئك المجرمون وينهبونها، ويقتلون ركابها، ثم يلقون بهم وسط أحد الشعاب النائية طعاماً للوحوش وقدم لنا نصيحته الذهبية الأخيرة قائلا:

ـ لا تتوقفوا لأي سبب، أو تأخذوا أحداً يقف على جانبي الطريق.

ـ ونعم بك أيها الفحل.

ـ ونعم بك من شاب فحل.

كانت تلك تحيتهم، والفحل هنا تعني ذكر الماعز القوي، وكأنه يحثه على عدم الركون إلى شيء عدا قرنيه، لا تستسلم، امض في طريقك، وناطح كل ما يعترضك حتى تصل إلى مفرق رهيش. فسّرت لي هند هذا المقطع الغريب من الكلام، لذا انطلق مالك بالسيارة مسرعاً، ولم نعد نبالي بقيادته المتهورة مادام يبغي منها حفظ الأرواح، وليس إخافتنا كما حدث في الصباح، كانت إحدى عينيه مصوبة إلى الطريق، والأخرى تراقب الساعة، وتتابع ميلان قرص الشمس في السماء.. كان الخوف يملأ نفسي، ويظهر بوضوح في وجه رفيقتي الصغيرة، لم أخف من الوحوش بقدر ما خشيت من اللصوص أو قطاع الطرق يقتلون المسافرين، لذا أحببت أن يزيد مالك من سرعته ليأخذنا بعيداً عن تلك البرية الجافة الوعرة، لكنه كان يخفف السرعة ليتقي الأحجار البارزة والفجوات التي قد تصيب السيارة بضرر بالغ، وتعطلها عن السير.. كان يتكلم بغضب شديد، مفصحاً أنه لم يعبر مثل هذا الطريق السيئ من قبل، وأقسم أن اللصوص وقطاع الطرق والمهربون هم من شقوا هذا السبيل الضيّق ليتسنى لهم المرور بعيداً عن نقاط التفتيش الحكومية للوصول إلى ميناء الحديدة.. مرت ساعة من الزمن دون أن نصادف إنسانا أو منزلاً، كان في قلبي قلق وحيد يباغتني من فينة إلى أخرى، ولا أظن أحداً بوسعه احتمال هذا الأمر البشع، وهو أن تحمل بقايا جسد أبيك في كيس، وتعود إلى أمك لتنبئها بما حدث، أصابني

التفكير بأحداث البرية بالاكتئاب، فتشاغلت عنها بالنظر إلى الطريق الوعر. كنت رغم اغتمامي فرحاً بنجاتي ومسروراً بعودتي مصطحباً هند الصغيرة، لم يكن أبي ليسمح لي أن أعود برفقتها إلى القرية، وسوف يختلق مئات العراقيل ليفصلنا عن بعض، ولا أنكر أن روحي بدت منطلقة متمردة من دونه، وأن بوسعي الإحساس بالانتشاء والخفة كمن أزيحت حمولة ثقيلة عن ظهره، واكتشفت أن هذا الشعور لن يداهمني حين أفقد جدي، لأنه رجل جليل الشأن يهتم بأملاكه وشئونه الخاصة، ولم أسمعه يتحدث عن تطهير الأرض من الآثام، وكأنه يدرك أن هذا محال، ولأنه شخص عتيق ونزيه فقد كان يسمو بنفسه عن الاهتمام بالتوافه، حتى أن عواطفه الدينية لا تثور أو تخرج عن نطاق مسجده أو منزله، ولا يعنيه أن يؤمن الناس بالله أو يكفروا، وتراه رغم ذلك متمسكا بالتقاليد، بحيث لم يحبذ أن يزوج ابنته لابن أحد الفلاحين الذين يعملون في حقوله، وكان بوسعه أن يمنع ذلك الزواج بشتى السبل، لكنه لم يفعل، وبدلاً عن ذلك أصدر على الزوجين عقابه الخاص، لأنهما تمردا على إرادته.

كنت أفكر في عودتي وحيداً برفقة اثنين من أبناء عمتي المتمردة، لن يفرح جدي حين يرى هند في الدار، وهو بطبيعة الحال ليس بخيلاً أو عاجزاً عن إعالة طفلة صغيرة أو حتى جيشاً من الأطفال. على العكس، فهو لا يشكو من شح أو إملاق، بل يملك حقولا كثيرة، وداره مفتوحة للضيوف وعابري السبيل، ولا يخرج من عزلته وصرامته سوى حين يقابل زائراً أو زوارا، ومن ثم يبدو فرحاً مثل طفل حصل على لعبة جديدة، وأراه حزيناً ممتقع الوجه عندما يغادرون، حين أفكر في هذا لا أشك أن تكون هند محل ترحيبه، ستفرح دون شك حين

تراه، لكن مالك يبدو بغيضاً حاقداً، ولا أعلم ما يدور في رأسه، خاطبت نفسي بهذا الكلام، واقتربت من الفتاة بخوف وكأني عازم على حمايتها من خطر وشيك.

لم يعد مالك يولينا اهتماماً رغم أننا صرنا ملتصقين عند زاوية المقعد الخلفي، كانت السيارة المندفعة على الطريق الوعر تقذف بنا إلى الزاوية الأخرى، فلا نفترق وكأننا مثبتان بواسطة مسامير صلبة أو غراء، وفي أحد المنعطفات القاسية صادفنا ولدين صغيرين يحملان حقيبتين مدرسيتين، كانا يشيران لنا بالتوقف، متبسمين بوداعة ولطف، حتى إن ما يلبسونه من ثياب أكسبهم مظهراً لائقاً رقيقاً يبعث على الإعجاب، وتوقعت من حجمهما أن يكونا في الصف الرابع، كلاهما ببنطال أزرق وصدرية رمادية ذات نقاط خضراء بهية، شعرهما أسود سلس ممشط مائل ذي فرق لطيف واضح بمنتصف الرأس، ولم يعترنا شك في أنهما طالبان امضيا عطلة الأسبوع مع عائلتهم، ويبغيان العودة إلى مدرستهما المتربعة بمكان ما في هذا الوطن الكبير، لم يكن هناك في الجوار أثر لأي قرية أو منزل، ورغم ذلك تمنيت أن نأخذ هذين الصبيين على طريقنا، وفرحت حين شرع مالك يخفف من سرعة السيارة، ويقترب منهما بمهل، لمحت أحدهما ينظر إلى الجهة المقابلة من الطريق باهتمام، ثم يرد طرفه بسرعة مريبة، فنظرت إلى تلك الناحية، متوقعاً أن ألمح أحد أقاربه، والده، أمه، أو أي شخص مسالم.. لا يهم من يكون.. وبدلا عن ذلك رأيت بضعة رؤوس قذرة لأشخاص متوارين وسط حفرة من مخلفات السيول تبعد عنا بضعة أمتار، ولمحت فوهات بنادق كلاشنكوف مصوبة باتجاهنا، ولم تكن

السيارة لحسن الحظ قد وقفت بعد، فصرخت بصوت حاد لا أظنه صوتي:

ـ رجال في الحفرة...

فاندفعت السيارة على المنعطف القاسي بسرعة فائقة مخلفة وراءها ذيلاً من الغبار، وسمعنا صوت إطلاق النار يتردد خلفنا بشكل مخيف، وصاح مالك بذعر:

ـ انخفضا..

وخرقت بعض الطلقات السيارة، ونثرت الزجاج الخلفي فوق جسدينا الممددين على المقعد، وبقينا مختبئين حتى ابتعدت السيارة عن المنعطف الخطير، وتناهى إلينا صوت طنين النحل شديداً، ورأيناها تحلق بكثافة حول السيارة، ودخلت عبر النوافذ المهشمة ولسعتنا، فصرنا عبثاً نهشها بضربات طائشة، ولم ندرك كم مضى من الوقت قبل أن ينقذنا صوت مالك.

ـ أيها الغبيان، أغلقا زجاج النوافذ، وسدا الفتحات الخلفية بشيء ما.

وفعلنا ما أملاه مستخدمين قطع من ملابسنا كسدادات، وسرعان ما تلاشى الطنين، وعمّ الهدوء والارتياح، ولكن بقي الألم في وجهي قائماً، وصرت أتذمر على خلاف الأخوين اللذين ترعرعا وسط المنحل، وأفصح مالك أن أحد القفيرين أصيب أو كليهما، وأن رائحة البارود تزعج النحل، وكذلك صوت الرصاص والغبار. ولكن أجمل ما في الأمر أن أحدنا لم يُثْقَب، ووصلنا إلى مفرق رهيش بُعَيْد المغيب، وهناك وجدنا استراحة للمسافرين، ودكاكين صغيرة تبيع

صنوف من البضائع المحلية، ووادٍ مزروع، وقرية كبيرة يبيع أهلها الحطب، كانت هنالك أكداس متراكمة من فروع الأشجار اليابسة مكومة على جانبي الطريق. بدا المكان مأهولاً نشط الحركة والسيارات تأتي وتروح في خط عريض ممهد يؤدي إلى مدينة إب عاصمة المحافظة، فتنفسنا الصعداء وخرجنا من السيارة لنشم الهواء المنعش ونرى شفق الغروب، فيما ارتدى مالك ملابسه الواقية، وسار إلى مؤخرة السيارة، وأخذ يقوم بشيء ما لتهدئة روع النحل، ومعالجة الأضرار، ومكث يعمل إلى وقت العشاء مستضيئاً بمصباحه اليدوي، وحين آب أفصح أن أحد القفيرين أصيب، وأن هناك عدداً كبيراً من النحل نفق، وقد نظف القفير، وسدّ موضع الرصاصة، وأعاد الملكة الغاضبة إلى موضعها المخصص. ثم قام بتموين السيارة بالبنزين، وتفقد محركها وإطاراتها.

كانت بطوننا جوفاء تقرقر من الخواء، فاقترح مالك أن نسكتها بشيء مما يوجد في الدكاكين، وذهب إلى أقرب دكان، وعاد ببعض الكعك المحلي وثلاثة أكياس طازجة من الحليب، فأكلنا داخل السيارة، ثم واصلنا السفر، اخترقنا وسط مدينة رحاب، عاصمة مديرية القفر الأعلى، كانت تشع منها أضواء لمبات كهربائية تعمل على مولد كهرباء وحيد ينير المجمع الحكومي، وبعض المتاجر ومنازل الوجهاء والقادرين على دفع رسومها الباهظة، اجتزنا المدينة الصغيرة وارتقينا إلى جبال صماء قاتمة اللون، وعلى جانبي الطريق مزارع وقرى تنير بيوتها أضواء مصابيح الكيروسين الصفراء، كانت أنوار السيارة الأمامية تكشف عن تلألؤ مياه الجداول الجارية في السواقي، وبياض

جدران المساجد الصغيرة، ووميض سطوح البِرك وحواجز الماء، وسألني مالك بذهول:

ـ أهذا جزء من القفر الأعلى؟

بالكاد استطعت أن أقول بتأثر:

ـ نعم، كما ترى، كل شيء هنا مختلف.

ـ هذا ليس قفراً، إنه مكتظ بالمساكن كما ترى!

ـ هكذا يطلقون عليه، لعله كان خاوياً من الناس في يوم ما.

ـ الجو هنا معتدل يميل إلى البرودة كلما صعدنا، والماء متوفر، وهذا يجذب السكان.

ـ لم تر شيئاً بعد.

ـ وأين تقع قريتك؟

ـ هناك في الأعلى، لا أعرف.

صاح بنزق مفاجئ:

ـ ماذا قلت..؟ لا تعرف الطريق.

ـ أرجوك، لا تصرخ.

ـ كيف لا أغضب! أنت توترني طوال الوقت بوجهك البليد ونظراتك الغبية وكلامك الغريب.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟

صمت لبرهة ثم قال:

ـ لا شيء، سألقي بك في قريتك وأعود للتو وبمعيتي هند.

ـ لن تجرؤ على مخالفة رغبة والديك.

وصاحت هند بنزق:

ـ لن أعود معك.

ضحك الشاب على ردة فعلنا العصبية، كان يعجبه أن يفسد فرحتنا، ويتسلى باستفزازنا، وقال بعد قليل من الصمت:

ـ آمل ألا توافق أمك، لست متفائلاً أن تقبل إعالة فتاة صغيرة، لاسيما إن كانت تعيل زمرة من الأطفال.

ـ ليست مخولة بالموافقة عليها، هناك...

لم أنطق الكلمة التي كنت على وشك قولها، فقد تذكرت أني كذبت عليهم مدعياً موت جدي، وكدت أن أفضح نفسي، والحقيقة أن جدي شبه ميت في داره، غارق في عزلته كالمتصوف الزاهد عن متع الدنيا، حتى يحل علينا زوار، فيخرج لاستقبالهم وينفق بسخاء، أما في الأوقات العادية فإنه يجلس قريبا من جدتي المقعدة، يراقب الطريق عبر نافذة الغرفة وكأنه ينتظر شخصا ما، ولا يخرج سوى في مواقيت الصلاة ليذهب إلى المسجد، ثم يعود سالكا طريقه المألوف دون أن يميل عنها لأي سبب، ومن النادر أن يتدخل بشئوننا رغم مهابته

وقدرته على تدمير الدار على ساكنيه لو شاء، ذلك أنه مازال المالك لكل شيء فيه، ولا أحد يجرؤ على التقليل من شأنه أو إزعاجه، وأنا الوحيد في العائلة من يستطيع أن يقرع عليهما باب الحجرة في أي وقت، وأبقى قليلا، وحين يعوزهما شيء ما يقرع جدي أرضية الحجرة بعصاه الخيزران، فنهرع لتلبية النداء دون تردد، وكان يروق له أن يكلفني بحمل الرسائل أو التوصيات لبعض الأشخاص في القرية، وعند الأعياد يستدعيني، ويمنحني خمسين ريالاً، وبعض المكسرات، ودائماً كان يقول لي متوتداً:

ـ أنت تشبهني يا زيد عندما كنت في عمرك.

سبحت في ذكرياتي الخاصة عن جدي، يعتريني القلق من مقابلته ثانية بمعية حفيديه مالك وهند، وعتبت على نفسي لأني ادعيت بأنه ميت، ثم عدت إلى وعيي وقلت لنفسي: "أمي ستتولى الأمر، جدي غائب لا يتدخل بشئون المنزل، ولا أظنه سيعرف أني وصلت سوى في صبيحة اليوم التالي، ويكون هذا الشاب البغيض قد غادر.."

قاطع مالك هواجسي قائلاً بحدة:

ـ بِمَ تفكر أيها الفتى؟ أحسبك قلت أن هناك شخص آخر مخول بالموافقة على قبول أختي في منزلكم.

ـ إيه.. لقد نسيت أن أبي ميت، لا تهتم، فنحن نستطيع أن نعيل قبيلة من الأطفال، لأن لدينا حقول كثيرة ورثناها عن أجدادنا الفقهاء القدامى.

هز رأسه باستهانة كمن لم يعجبه الكلام، وأراد أن يكدرني بأي حال من الأحوال، فقال عاتباً بحقد:

ـ كيف تنسى أن بقايا والدك مكدسة في الكيس؟ أتظن أن تستقبلنا أمك بفرح؟

لم أجب، نظرت إلى الكيس باغتمام، وتنهدت. وفكرت في أمر العظام، كيف بوسعي أن أقنع أمي بأن أشلاء زوجها في ذلك الكيس، لا شك أنها مازالت تنتظر عودتنا، أو تكون قد يئست من بقائنا على قيد الحياة، كما إن الوصول ليلاً إلى القرية أمر رهيب، ويصعب معه إخبارهم بالحادث المروع الذي وقع في الوادي القاحل، ولكن الناس يتعجلون أخبار الشؤم، ولا يطيقون صبراً عن سماعها، لن ينتظروا حتى شروق الصباح. قلت ذلك لنفسي. وأحست هند باغتمامي رغم اختفاء وجهي وسط ظلام المقعد، فصاحت فجأة مخاطبة أخيها بحدة:

ـ يا لك من فظ يا مالك، ألا تستطيع أن تسكت حتى نصل إلى القرية؟

قال بسخط:

ـ يتحتم أن يكون شجاعاً متأهباً للرد على استفسارات أمه، لا أحب سماع العويل في الليل، هذا كل ما في الأمر.

انفجرت قائلاً باضطراب:

ـ لا أستطيع أن أخبرها، ليت الضباع أكلتنا معاً.

ـ دع الأمر لي.. لا تبكِ وحسب.

عاد مالك طيباً، بعد أن فكرت في سحقه كحشرة، كانت تلك عادته حين لا يكون دفتر حسابات "المنحل" في يده، يبدأ باستفزاز وتعكير صفو الآخرين، حتى يفلح في أن يكون شخصاً منفراً بغيضاً، ثم ينقلب فجأة إلى شاب وديع يعول عليه في نهاية المطاف، وعلى من يرافقه أن يملك الصبر وطول البال، وما يميزه عن أبي هو أنه لا يبدو محافظاً، بل شاباً عابثاً ساخراً، سرعان ما يعود إلى جادة الصواب بعد أن يفقد المرء صوابه، ومن ثم يصير حكيماً ودمثاً. لم أصادف أحداً في مثل طباعه قط. وقد منحه عمله الذي يقوم على التجوال صفة الثقة بالنفس، لذا كلف نفسه عبء السؤال عن الطريق المؤدي إلى قريتي، وكأنه موقن أني لم أصل إلى العمر الذي يخولني أن أفك أحجية بهذا الحجم، لاسيما في الظلام. وكنت فعلاً أجهل الأماكن التي كنا نمر بها، رغم أني سلكتها برفقة أبي في وضح النهار، مرة واحدة أو مرتين كحد أقصى، على متن سيارة الحاج غانم صاحب دكان القرية، اجتزناها يوم خميس متجهين إلى مدينة رحاب للتسوق، المرة الأولى كانت عندما تقرر انضمامي إلى المدرسة في السادسة من عمري، ولم أنس غضب أبي وهو يقودني إلى محل التصوير الوحيد في المديرية، لألتقط بضع صور صغيرة ذات خلفية بيضاء، من أجل أن تحفظ في أرشيف المدرسة، وكان يفعل كل شيء شاكياً، مردداً بأن هذا النوع من التعليم غير مجدي، لاسيما وأن هناك مواد كثيرة لا تتحدث عن الدين، باستثناء مادة التربية الإسلامية. وكان عليه أن يبتاع لي مرغماً في الأعوام التالية عدداً من الدفاتر والأقلام، لأن معظم أهالي القرية يفعلون ذلك. وفي المرة التالية زرتها قبل بضع شهور من رحلتنا المشئومة، عندما أقيمت في المديرية مسابقة لطلاب الصف السادس، وشاركت مدرستنا فيها، وقد حصدنا المركز الأول وذاع صيتنا في

المديرية، وشعر أبي حينئذٍ بقليل من الزهو لأن اسمه كتب في جريدة "اللواء الأخضر" ملحقاً باسمي، ولاحظت ذلك على وجهه في ذلك النهار البهيج. آه، كم يتملكني الحنين عند الكلام عن أحداث ذلك العام، لكن ذلك لن يكون سوى إهدار للوقت والحبر والأوراق، وماذا يمكن أن نقول أكثر من أنه عام مميز هادئ، حصلت فيه على كثير من الجوائز، حتى أن جدي وهبني حقلاً كبيراً من أملاكه، وسجله باسمي في سجل وصيته.

لم أدرك أن عطلة ذلك العام الجميل ستنقلب إلى كابوس مريع، وأن القدر سيختارني لأرافق أبي في رحلة مزعجة، ولعل أجمل ما فيها أنني عدت إلى القرية وبمعيتي فتاة جميلة، وفي الوقت عينه كنت تعيساً مرعوباً لأني أحمل عظام أبي وبقايا ملابسه الممزقة التي لم تكن تخصه في حقيقة الأمر. وكان خوفي يتضاعف كلما اقتربنا من وجهتنا الأخيرة.. وحالما وصلنا إلى مشارف قريتنا سالمين انبعج قلبي وارتعدت عظامي، وكنا جميعاً متهيبين، والتفت الشاب السائق إلي وقال بحدة غير متوقعة:

ـ قريتك؟

تضوعت رائحة قريتي بجوها الخريفي الحاد، ولفحتني ريحها الباردة ونسماتها الليلية المنعشة المحملة بهواء المرتفعات الوسطى، كما تمكنت من تمييز نباح كلابها الضالة، وتلك المقيدة بالسلاسل عند أبواب المنازل، أو بأطراف حقول الذرة الشامية، لتحرسها من الثعالب ولصوص المحاصيل، لا أعرف كيف استطاع العثور على هذا المربع الصغير الذي تحتله المنازل! ومهما يكن، فقد تعرفت على قريتنا

الصغيرة المتربعة على ظهر حيد بركاني متآكل الأطراف، وعلى المدرجات الزراعية التي نملك جزءاً دسماً منها.. لذا صحت بيقين وكأني اكتشفتها للتو:

ـ إنها قريتنا.

قال مالك بضيق:

ـ أعرف ذلك، لا داعي لأن تصرخ، أرشدنا فقط إلى مسكنكم الوضيع.

ـ ليس وضيعا كما تظن، إنه أكبر دار في القرية.

سكت مالك، في حين قالت هند بتأثر مبالغ فيه:

ـ تبدو قرية أمي جميلة، لا أصدق أننا وصلنا إليها! هل تحبها يا مالك؟

ـ أنا لا أحب شيئاً فيها، دعاني أفكر وحسب، لا تزعجاني.

ومكث جالساً بموضعه أمام عجلة القيادة، واضعاً رأسه عليها بقلق، كان قد أطفأ محرك السيارة والأضواء، وبدا مشغولاً يفكر في شيء ما. بدت القرية صامتة نائمة إن أغفلنا نباح الكلاب، ولا تلوح سوى ومضات غامضة كالوهم تصدر من نوافذ المنازل القاتمة، وهذا يعني أن ميقات وصولنا لم يكن مواتياً، وأن لا أحد ينتظر قدومنا ليستقبلنا. كانت ساعة السيارة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، ولا شك أن دخول سيارة غريبة ـ بما ستخلقه من ضجيج وأضواء ـ ستثير مخاوف الأهالي، لاسيما لأرباب المنزل الذي ستتوقف قربه، ويبدو أن الكلاب البغيضة قد فضحت أمرنا، ولعل أصحابها الآن يقفون على السطوح

أو يتلصصون من النوافذ ليروا ما يحدث. لا يُستبعد أن يحدث هذا في قرية صغيرة..

ـ علينا أن نرسم خطة لدخول القرية دون أن يشعر بنا أحد.

هكذا أكد مالك، وتكلم بحماس يثير الدهشة، وكأننا على وشك اقتحام معسكر حصين الأسوار، ثم خرج ليتفقد قفيري النحل وجرار العسل التي شحنها ليبيعها في مدينة رحاب عقب عودته، فهو بما يملكه من حس تجاري كبائع جوّال لم يشأ أن تكون مهمته خالية من الفائدة، حتى أنه حمل دفتر حساباته معه، وتأهب ليعقد صفقات بيع جديدة في مناطق لم يسبق أن زارها من قبل، وبعد أن اطمأن بأن كل شيء في مكانه الصحيح، عاد إلينا، ونظر إلي بعينين برّاقتين كأنهما لصقر، ثم قال بصوت مفعم بالتهكم:

ـ والآن ما هي خطتك يا شاطر؟

قلت ببساطة أول ما خطر في ذهني:

ـ أن أذهب إلى أمي.

ـ هذا جواب حسن، ينبغي أن تخبرها أن هناك من يود التحدث إليها.

خرجت ممسكاً الكيس الأبيض، فنزعه من يدي قائلاً بقسوة:

ـ دع هذا الشيء عندي، إياك أن تتكلم عن الحادث، فقط تستطيع أن تحدثها عن رغبتنا في مقابلتها.

ـ اتبعاني، مازال الدار بعيداً.

وسرنا متسللين كاللصوص، أنا في المقدمة، وهما خلفي صامتين، فيما مالك يمسك الكيس الأبيض بحرص شديد، وأخذنا نتوغل بين المنازل الميتة بخطوات هادئة حذرة مستضيئين بنور مصباح يدوي خافت الضوء، حتى وصلنا إلى قرب مسجد وضريح مولانا سراج الدين، بحيث ظهر شبح المنارة الصغيرة وقبة الضريح، فصرفت نظري عنها شاعرا بالنفور، ومضينا قدما حتى اقتربنا دون مشاكل من دارنا القديم الذي ورثناه عن سلسلة غير معروفة من الأجداد، وقد أجرينا عليه الكثير من أعمال الترميم، بحيث رأينا التصدعات والشقوق على جدرانه المتهالكة، وهكذا بدا بطوابقه الأربعة كابياً حزيناً لا تصدر من أعماقه أقل حركة وكأنه مهجور.

كانت المنازل المجاورة المتفاوتة الأحجام ساكنة لا تسمع منها نأمة صوت أيضاً، كما لم نتعثر بكلبٍ أو إنسانٍ في طريقنا، وهذا لا يحدث إلا في حال توفر الحظ الحسن، وعند ركن دارنا طلبت منهما الانتظار، وتقدمت صوب الباب الخشبي، وطرقته بهدوء بواسطة حلقة حديدية دائرية الشكل مثبتة عليه لهذه الغاية، وانتظرت أن أسمع جواباً دون جدوى. كان قلبي يخفق متهيباً، وتكاد دقاته تسمع للخارج، قرعت ثانية بقوة، ما أثار سخط مالك الذي كان يخشى من استيقاظ الجيران، وسمعته ينفخ بغضب كثور هائج، لم أكترث لشيء أو أبالِ أن يسمعني العالم بأسره، مادمت أقرع باب دارنا. لقد شعرت بطمأنينة غريبة وأمان لا يوصف على خلاف الأخوين الغريبين الخائفين المنتظرين عند الركن القريب، ثم تأهبت لأقتلع الباب من جذوره، بعد أن أصبت باليأس، وصرت أدق بجنون متواصل، وأنا أبكي بحرارة، حتى رأيت ضوءاً ينبثق من نافذة غرفة أمي بالطابق الثالث، فتوقفت، ثم كففت

دموعي. والتصقت بخشب الباب البارد، وبعد لحظات لمحت عبر شق طويل ضوءاً متوهجاً في دهليز الطبقة الأرضية، وأتى صوت أمي المميز خائفاً:

ـ من الطارق..؟

صحت بصوت مختنق:

ـ أنا زيد.

ـ زيد؟

ـ نعم.. زيد..

ـ يا رب السماوات..

وقفزت صوب الباب، وتعذر عليها أن تفتحه لارتعاشها، ومضت تقول بصوت متهدج:

ـ زيد، جئت في الليل! أحقاً ما أسمع؟ انتظر يا بني، لأفتح هذا الباب اللعين.

وأخيراً فُتح الباب بعد وقت قصير حسبته دهراً، وأطل جسدها الناحل في المدخل، كانت ترتدي قميص نومها الرمادي الذي اعتادت أن تلبسه في المساء، وسرعان ما جذبتني إلى الداخل قائلة بانفعال:

ـ ادخل، سيقتلك البرد.

ثم مطت رأسها إلى الخارج ملقية نظرة فاحصة، وأضافت باستنكار:

ـ يا ويلي، جئت وحيداً في هذا الوقت المتأخر! لا أصدق ذلك! أين والدك؟

قلت بصوت متهدج بالكاد استطعت أن أسيطر عليه:

ـ بل جئت بسيارة مالك ابن عمتي فوزية، إنه وأخته عند الركن ويرغب أن يقابلك...

قاطعتني صائحة بحدة:

ـ ألا تدعوهما للدخول يا زيد؟ لا يجوز أن يمكثا وسط البرد.

ـ حالاً.

ودعوتهما للدخول، فأقبلا يسيران على مهل، وهما يرجفان من البرد والتأثر، ويبدوان متهيبين من المكان. كان جو الدار دافئاً حين توغلنا في السلالم باتجاه الطابق الثالث. فيما سبقتنا أمي إلى الأعلى، وفتحت المجلس الكبير وأضاءت السراج فيه، ثم أيقظت أخوي محمد وعلي وأختي الزهراء، وطلبت من الأخيرة بصوت عالٍ بأن تعد شيئاً من الطعام للضيوف، فدخلنا المجلس الذي لا يفتح إلا في الأعياد، أو عند قدوم زوار مرموقين من أقاربنا أو من معارف أبي الحميمين، وجلسنا مرهقين صامتين، يكتنفني التهيب مثل مالك وهند، كما لو كانت المرة الأولى التي أرى فيها ذلك المكان، ثم دخل أخواي محمد ثم علي، أقبلا بعيون مسبلة الجفون ووجهين متورمين خاملين، ولم يمنعهما ذلك من الترحيب بنا والتبسم بصعوبة، وقال أخي محمد باستغراب:

ـ ألم يأتِ أبي معكم؟

رد مالك بصوت فظ:

ـ اسمع يا فتى، نحن في غاية الجوع والتعب، وليس هذا الوقت مناسباً لطرح الأسئلة.

وانكمش أخي محمد الملقب قرد القرية، وكأنما فوجئ بقسوة الرد، ها هو أخيراً يجد شخصاً أكثر وقاحة منه، ولم يجد بُداً من التزام الصمت، ومضى يتطلع إلى الضيفين بفضول، لاسيما الفتاة، وصرت أراقبه بحذر، في حين شغل الأخوان وقتهما بتصفح مقتنيات المجلس، كالسجاجيد القديمة والكؤوس النحاسية المنقوشة بأسماء الله وبعض الآيات القرآنية الصغيرة، وسيف مذهب الغلاف معلق على مشجب يعود تاريخه إلى القرن السابع الهجري كما نقش على نصله قرب المقبض، وبندقية بارود من مطلع القرن العشرين، وأشياء أخرى صغيرة وكبيرة مشتتة على رفوف النوافذ، ثم وقفا في النهاية أمام خزانة الكتب، وتقدم أخي محمد نافضاً خموله، وأخذ بما يملك من لباقة في الحديث يوضح للضيفين بعض المعلومات عما تحويه الخزانة، وأنا أراقب عن كثب ما يجري دون أن أحرك ساكناً، ثم انتزع الخبيث صورة قديمة بالأبيض والأسود متوسطة الحجم، لرجل راشد مهيب متشح بملابس الفقهاء، وإلى جواره شاب متجهم، يرتدي مئزراً ناصع البياض، ومعطفاً أسود وعمامة دائرية كتلك المتربعة على رأس الرجل الذي بجواره، وأوضح لهما محمد بأن ذلك الرجل الراشد في الصورة هو جدي، وأن الشاب المجاور هو أبي عندما كان شاباً في عمر مالك تقريباً. وقالت هند بحنين:

ـ انظر يا أخي إلى جدي كيف كان! لشد ما رغبت أن ألقاه قبل أن يأخذه الموت.

قابلها مالك بوجه عابس، قائلاً بحقد:

ـ أيعجبك هذا الرجل حقاً؟

ـ إنه جدي رغم ذلك. وعلينا أن نطلب لروحه الرحمة، ونصفح عنه.

صاح قرد القرية بصوت طافح بالعجب:

ـ ماذا تقولان؟ مازال جدي حياً وجدتي أيضاً.

انكمشت في الزاوية، وتمنيت أن أتبخر عن وجه الأرض، ولكن هذا لم يحدث، وسرعان ما اقترب مالك مني، وأمسكني من عنقي وأوشك أن يخنقني وهو يقول بانفعال:

ـ خدعتنا أيها الوغد الكاذب.

لم أخش أن يخنقني بقدر خوفي أن يأخذ هند، فقلت بالكاد:

ـ اتركني...

وبدت هند غير غاضبة مني، وقالت تخاطب أخيها:

ـ لا تؤذه يا مالك، لقد فعل ذلك ليحفزنا على المجيء. على العكس، يسعدني أن أقابل جدي.

لحسن الحظ أتت أمي، فابتعد عني مرغماً، ولاحظت هي الكدر الذي لحق بالشاب، فقالت بعجب:

ـ ماذا حدث يا أولاد؟

قلت بصوت مختنق وأنا أوشك على البكاء:

ـ مالك يريد أن يأخذ هند ويرحل.

ـ أي سبب يدعوه للمغادرة في هذا الوقت المتأخر؟

ثم تابعت مخاطبة الشاب الغاضب:

ـ لقد رغبت أن تقابلني، وأشعر أنك تريد أن تخبرني بأمر ما..

ـ نعم، ولكن.. ليس الآن.

وظل واقفاً يحك ذقنه بشرود، بدا في حيرة من أمره، لا يريد أن يرى جدي، كما لا يود أن يغادر دون أن يخبرها على انفراد عن مصير زوجها المؤسف، وكان قد حبذ أن يكلمها عند الشروق كما أظن. لأنه بدا منهكاً للغاية، وبحاجة لأخذ قسط من الراحة، لكنه الآن صار متردداً مرتبكاً بوضوح، ولا يدري ماذا يفعل. هل يغادر أم يبقى؟ ومن الغريب أني لم أندم على ما اقترفت، بل كنت خائفاً أن يضيع حلمي الذي حملته معي من البرية وكابدت الكثير من أجل تحقيقه، فنظرت إلى أمي التي مازالت واقفة تراقب الموقف عن كثب، وقلت لها بخجل:

ـ لا يريد مالك أن يقابل جدي بسبب ما حدث في الماضي. ولم يكن ليجلب هند لتتعلم في مدرستنا لو أدرك أنه حي. لذا كذبت عليه...

ـ أوه.. فهمت.

وأخذت أمي تزم شفتيها باغتمام، كما لو كانت عاجزة عن فعل شيء يحول دون رحيل الضيفين، ثم ما لبثت أن انفرجت ملامحها وكأنها توصلت إلى حل، واستأنفت رانية إلى مالك:

ـ اسمع يا بني، الجدّان نائمان في الأعلى، ولا يصحوان إلا قبيل الفجر للصلاة، ولم يسبق للجد أن دخل هذا المجلس منذ زمن طويل. لذا يمكنكما البقاء حتى الصباح.

ظل مالك يفكر متجهماً، وأخيراً رد بوقار شخص يقدم تنازلاً كبيراً:

ـ سأبقى لأتناول بعض طعامكم وحسب. لن أظن عليك بهذا يا امرأة خالي.

ثم نهض بحماس، وكأنه اعتزم أن يفعل شيئاً مثمراً، أو أراد أن يقلص أمد بقائه في منزلنا إلى أقصى حد، فاقترح على أخوي أن يساعداه على نقل جرتي العسل اللتين أهداهما والداه إلى أمي، ولم يتحدث عن القفيرين أو المدرهة أو أغراض هند، وكأنه حسم أمره بأن كل شيء انقضى، وانصرف من المجلس حانقاً دون أن ينظر في وجهي الممتقع، وتلك من اللحظات المشئومة التي شعرت فيها بالذل والضعة والحزن المرير، وتبادلت وهند بضع نظرات حزينة مقهورة، ولم نتبادل الكثير من الكلمات، أردت أن أعتذر وأبرر ما فعلت، لكني عجزت عن قول ما يتهادى في نفسي من كلام، وعندما عادوا قدّم مالك جرتي العسل لأمي، فقبلت الهدية وشكرت والديه الطيبين. كان الكدر يغشى ملامحها كلما اقتربت اللحظة التي ينبغي أن تسمع ما يحمله من أخبار، وكأنها كانت تشعر بأنها ليست مفرحة.

كان عبق الخبز الساخن يملأ جو المجلس، وهي رائحة تفتح النفس وتسحر اللب، وأقبلت أختي الزهراء بمربى الدُبَّا وشوربة عدس وأقراص من الخبز المحلي الساخن إضافة إلى إبريق من القهوة، جلبتها في صحن معدني عريض، وأثار دخولها عاصفة من الذهول. كانت مشمرة الساعدين، ومعصماها المكتنزان لهما لون الفضة النقية، ووجهها متورداً وجميلاً، وكأنه لحورية نسمع عنها ولا نراها، لم ألحظ مدى فتنتها إلا في هذا اليوم الذي ظهرت فيه مرتدية أجمل رداء نسائي تملكه، وهو روب سماوي من المخمل المنشى مزدان بزنانير ونقوش بديعة في أكمامه، مفتوح عند العنق على شكل رقم سبعة، فأبرز قسم كبير من صدرها البض، وكأنها تأهبت جيداً لهذه الزيارة غير المتوقعة، فأرادت أن تفتن الشقيقين الزائرين أو أحدهما على الأقل، وفعلاً كان لظهورها وقع شديد الخطورة على قلب ذلك الشاب الساخط مالك، وقد حيتنا بصوت خجول، واكتفت بالتبسم وكلمات الترحيب المألوفة، ولم تصافح أحداً منا متذرعة بانشغالها، لكن الفتيات في قريتنا صرن بدافع الخجل أو الحشمة لا يلامسن أيادي الرجال رغم ما يبدو عليهن من رغبة جامحة في ملامسة فروجهم، لقد حفزها غياب أبي أن تأتي بهذا المظهر غير المحتشم. كان لا يعجبه ظهور خصلة من شعرها أو جزء طفيف من صدرها الناصع البياض، وذات مرة صفعها بقسوة عندما رأى ساقيها الأمردين، ثم أمرها أن ترتدي سروالاً طويلاً في الحال. لكنها في يوم عدنا من البرية بدت أجمل منها في أي وقت مضى، وقد اعتراني الحنق لقلة احتشامها، كان ظهورها جريئاً مفاجئاً لجميع أفراد العائلة الذين تربوا على آراء أبي المتصلبة، لذا امتقعت وجوههم وسددوا إليها نظرات مستنكرة، غير أنها ضربت بمشاعرنا الجريحة عرض الحائط، وكأن الماكرة شاءت أن تقدم نفسها

كما يليق بشابة في سن الزواج، ولم يكن بوسع أحد أن يعترض على ملبسها في حضور الضيفين، حتى أمي تغاضت عن ذلك.. لم أفكر في ازدياد عدد العوانس في القرية آنذاك، وارتفاع حدة التنافس بين الشابات على جذب انتباه الشبان اللائقين بحيل عديدة، لذا لم أجد لها عذراً على فعلها الجريء وسط عائلة محافظة وتقاليد صارمة، ومازال زواج عمتي فوزية (أم مالك وهند) من رجل غير مرغوب فيه وتمردها على جدي ضربة عار مؤلمة أصابتنا منذ أعوام خلت.. فكرت في هذا رغم أن عمتي وزوجها ـ الذي لم أجرؤ بالسؤال عن اسمه ـ كانا طيبين، وقد عدت وأنا أحمل لهما المودة الخالصة والامتنان، غير أن إصرار مالك أن يعود بأخته إلى البرية محا كل شيء، وجعلني أمقتهم جميعاً حتى الزهراء حقدت عليها بشدة، وفكرت فيما ترجوه من ذلك الشاب الطويل الأبله! ما أسرع أن نسيت معروف مالك الذي أعادني بسيارته إلى أمي! وصرت أنظر إليه بعينين حاقدتين، وقلت لنفسي: أي معروف فعله! لقد أعادني مكرهاً. ثم إنه ظل يستفزنا ويخيفنا ويصرخ في وجوهنا بغضب. ولمحت الشامة السوداء المتربعة على خده الأيمن المليء بحب الشباب، وهي علامة دامغة للجمال يتحدث عنها الناس، وتلك الشامات وافرة في عائلتنا، لاسيما لدى النساء، فهناك شامة على خد أمي، وأخرى تزين خد الزهراء الأيسر الناصع، ومازالت شامة هند في خدها النضر صغيرة بحجم حبة العدس.. تأملتها بمودة بريئة وهي جالسة تقاوم النعاس، بدت مرهقة بوضوح وفي عوز شديد للراحة، لكن شقيقها الفظ يحاول أن يأخذها في رحلة العودة، وتأملته بمزيد من البغض، كان يبدو بريئاً مشرقاً بعد لحظة الاضطراب التي أصابته حين ظهرت أختي، وأصبح الماكر يتبسم دون توقف، ويحاول أن يقول شيئاً مسلياً ومضحكاً

ليكشف عن خفة دمه ولطفه، ويبدو أنه وقع في الحب من النظرة الأولى، ومن يراه ساعتها لا يظن أنه يملك ذلك القدر من الخبث والاستفزاز، وقلت لنفسي بغيظ إن هذا الشاب يتلون كالحرباء، ولن يكف عن تظاهره بالوداعة حتى ينال إعجاب أمي ومحبة أختي الحمقاء.. وتذكرت أن الزهراء مثله مداهنة متقلبة المزاج، وتساءلت بحماقة عما يدعوها للإيقاع به. هل تصبو أن تقترن به رغماً عن أنوفنا وتلحق به إلى البرية؟ وكرهت أن يحدث هذا الأمر، وفكرت أن أفسد أي شيء يحدث بينهما، حتى إن اقتضى الأمر أن أفضح عيوبه على الملأ، فأجعله يبدو غير مناسب لفتاة أصيلة مثل أختي، ودار في ذهني خاطر أحمق، وهو أنه ينتمي إلى أسرة وضيعة غير جديرة بالزواج من عائلتنا! كنت غاضباً دون شك. وأحتفظ بالعرفان لأختي الماكرة التي تمكنت ليلتها من جذب اهتمامه في الحال، وجعلته ينسى أمر المغادرة، فصار ينظر إليها بين فينة وأخرى، متظاهراً بأنه يتصفح المقتنيات القديمة القابعة خلفها على الجدار، ورأيته أكثر من مرة يفتح ثغره، ثم يضع اللقمة في ذقنه أو على شاربه الصغير، وكنا الثلاثة نأكل، بينما أفراد العائلة يتطلعون إلينا باهتمام، وفي مرة ضبطت الزهراء تتفحص ملامح مالك بمزيج من الرضا والفرح، فرفع بصره إليها والتقت عيونهما لوهلة وجيزة في نظرة عميقة حارة، ثم تبسما في آن والتفتا إلى مكان آخر لصرف انتباهنا، مما يعني أن كلاهما قال أشياء كثيرة للآخر في نظرة خاطفة، وقتئذٍ لم أدرك أنهما أعلنا الحب المتبادل بهدوء وصمت، ولو عرفت ذلك كنت سأغضب بالتأكيد، وافتعل شجاراً حامياً لأفسد عليهما تلك اللحظات البهيجة، أو أقايض سعادتهما ببقاء هند إلى جانبي، وكنت انتظر باغتمام الوهلة البغيضة التي يستأذن فيها بالرحيل، وشرعت أتأهب للانقضاض عليه

لمنعه من اصطحابها مهما كلفني الثمن، لكن الزهراء استطاعت أن تعرقل رحيلهما بواسطة عينيها الساحرتين، وفعلت ما تعجز الأقدار عن فعله.

فبعد أن فرغنا من الطعام أخذت أشرب الشاي ببطء، وقد نسيت أمر عظام أبي المتكدسة في الكيس، وصرت أتحين اللحظة التي سأصرخ في وجه مالك وأفضح تصرفاته المستفزة وتهوره في القيادة! بل وقررت كذلك أن أصمه بسمات قبيحة كثيرة، أردت أن أحطم قلبه بكل الوسائل الساذجة التي تدور في رؤوس الأطفال الناقمين. لكنه ظل متسمراً بمكانه، وانغمس وأمي في حديث متشعب، وبدا مبتهجاً للغاية حين شرعت الزهراء تشارك في الحديث بصوت رقيق خجول، طرحت عليه سؤالاً عن تجارة العسل، فاستفاض في الشرح مفصحاً عن أعماله وخططه المستقبلية لتطوير الإنتاج، وأفصح عن نيته ببناء معمل متطور، وإنشاء مناحل أخرى وسط بيئة غنية بالمياه والأزهار، ولا بد أن يقيم له منزلاً هناك ليدير الأعمال بنفسه، لأنه شغوف بالنحل ويملك خبرة الاعتناء بها منذ طفولته، فضلاً عن دقته في الحسابات.. وبدا مالك وكأنه يوحي للزهراء إلى نوع الحياة التي تنتظرهما، فكانت تهز رأسها وتبتسم بفرح.

وفجأة صاحت الديوك من المنازل المجاورة، فأخرجت أصواتها الرنانة مالك من غمار مشاريعه وخططه، فأعلن دون سرور عن نيته وأخته المغادرة قبل أن يفيق الجد للصلاة، وطلب أن يحدث أمي على انفراد، فاكتست ملامحها بمسحة من الغم، وتلبدت وجوه إخوتي بالخوف، حتى أختي الزهراء توردت وأجفلت، وبالكاد سمعنا صوت أمي الواهن وهي تطلب منا مغادرة المجلس. وقبل أن نتحرك خطوة

واحدة سمعنا قدما جدي وعصاه تقرع سلالم الدار وصوته وهو يدمدم كعادته بالدعاء وأذكار الفجر.. كان صوته مشوباً ببحة حادة وسعال متقطع، وطالما يردد مناجاته مخاطباً الله بصوت عالٍ دون مراعاة للنائمين، ولكن من ذا الذي يملك الجرأة على تنبيهه إلى خفض صوته؟ إلا أنه لا يدخل طابقنا لأي سبب. ويكتفي بإرسال دعائه الصاخب لإيقاظنا لأداء الفريضة كما عرفت، وكان حضوره في ذلك اليوم يعني كثيراً من المتاعب، لاسيما في ظل وجود ضيفين غير مرغوبين، لذا أشارت أمي إلينا بأن نصمت ونتمهل قليلاً ريثما يغادر، وفي العادة لا شيء يمكن أن يشغله عن الخروج لأداء الصلاة الجماعية في المسجد، وكنا على يقين أنه لن ينحرف عن خط سيره المألوف. لكن أمي ظلت واضعة سبابتها بشكل عمودي على شفتيها محذرة الجميع من إصدار أي صوت، غير أن جدي في تلك الليلة اقترف معجزة ودخل طابقنا، واتجه صوب مجلسنا الذي يشع منه الضوء، وظهر فجأة على الباب ممسكاً عصاه الخيزران الرشيقة، ما لبث أن قرعها على الأرض بثبات وحزم مشيراً إلى حضوره المهيب، ولمعت عيناه وسط وجهه الأشيب المليء بالتجاعيد، وهو يقول بصوته الضخم:

ـ لقد سمعت طرقاً عنيفاً على باب الدار، ماذا يجري هنا؟

أرادت أمي أن تنقذ الموقف، فقالت بصوت مضطرب:

ـ نعم يا عم، لقد عاد زيد من القفر الأسفل، وهو من قرع الباب.

ـ أين ذلك الحمل الصغير؟ ألا يأتي ليصافح جده؟

اقتربت منه فتخلى عن عصاه لتسقط على الأرض، ونادراً ما يتخلى عن وقاره، فقد كان يحبني كثيراً، وكنت كذلك أبادله الحب، وما إن دنوت منه حتى بسط ذراعيه، والابتسامة تملأ وجهه المتهيج، وضمني والدموع تسيل من عينيه البيضاويين، وهو يقول بفرح:

ـ خشيت عليك أيها الشقي، ولولا أن إرادة الله أرادت أن تذهب مع أبيك، لم أكن لأسمح بخروجك من الدار.

لم يسل عن أبي في تلك اللحظة، كما لم يكن قد لاحظ وجود شخصين غريبين في المجلس، وإن لاحظ ذلك لم يكن ليكلف نفسه عبء السؤال عمن يكونان، فهو لم يكن كثير الفضول، علاوة على أن بصره غدا ضعيفاً، وعلى الأرجح أنه لم ينتبه إليهما. كان مالك منكمشاً مطأطئ الرأس يرتعد من التأثر والضغينة، وعلى عكسه بدت هند تحدق في ملامح جدي المهيبة بانبهار، وفيما هو يمسح رأسي ناسياً موعد صلاته هرولت الفتاة باتجاهه، ويبدو أنها لم تستطع أن تمسك أعصابها، وهي ترى جدها عن كثب، فتشبثت براحته وهي تقول بابتهاج:

ـ جدي...

نزع جدي كفه الخشنة المغطاة بالعروق النافرة، ودقق النظر في الفتاة وسأل بعجب:

ـ من تكون هذه البنت الشقية؟

لم يكن سؤاله هذا موجهاً لأحد بعينه، ووجدت نفسي مخولاً بالجواب فقلت بزهو:

ـ إنها هند بنت عمتي فوزية، وقد أتت برفقتي لتعيش معنا في الدار.

اسود وجه جدي حتى تحول إلى ليل حالك، ولم يحر جواباً لبعض الوقت، ثم قال بازدراء:

ـ أبعدوها عني..

ووجف قلبي وأنا أسمعه يقول ذلك، لم أظن أن يكون رده قاسياً، وأن يعاملها تلك الطريقة المزرية، في حين بدت هند مذعورة ومنكسرة، وكأنها هي الأخرى لم تتوقع أن يرفض جدها استقبالها، وما لبث مالك أن تسلل كثعلب ماكر، متحلياً بأكبر قدر من الهدوء والرزانة، وأمسك بيد أخته راسماً على شفتيه ابتسامة زائفة، وقال رانياً إلى أمي بامتنان:

ـ أشكركم على حسن الضيافة، يجب أن نذهب.

لم يتزحزح جدي عن المدخل وكأنه صخرة ثقيلة، و سأل بصوت أقل قسوة مخاطباً الشاب:

ـ هل أنت شقيقها؟

انحنى مالك أمام جدي باحترام جم وأجاب:

ـ نعم، عن إذنك..

لم يتزحزح جدي، وسأل بصوت منكسر:

ـ كيف حالها؟

ـ بأحسن حال.

سكت جدي وكأنه يفكر في شيء مناسب ليقوله، أخيراً قال:

ـ لقد تغيرت أشياء كثيرة يا بني.

ـ هذا صحيح، لكننا لم نتغير للأسف، اسمح لي أن أذهب.

ـ كيف تغادر دون أن تفصح عن اسمك؟

ـ اسمي مالك.

ـ هذا اسم لا يليق بشخص فقير.

ـ لسنا فقراء كما تظن، حالنا ميسور، إننا نملك أضخم منحل في المحافظة ولدينا رصيد ضخم في البنك.

ـ يسرني أن أسمع هذا..

وشرعت هند تبكي، مرددة بإلحاح:

ـ أريد البقاء في دار جدي، لقد أخبرني زيد إنه كان رجلا طيبا ويحب الزوار.

همس لها مالك بسخط وتهكم:

ـ ها قد رأيتِ أن زيدا كاذبٌ لعين، وأن لا أحد يحبنا في هذا الدار، إنهم يظنون أننا جزء من العار الذي لطخ سلالتهم الكريمة.

يبدو أن جدي سمع قوله، فقد شحبت ملامحه واهتزت حدقتا عينيه بتأثر، وما لبث أن هتف بانفعال:

ـ لا تجبر أختك على فعل ما لا تريده، دعها تبقى معنا لتتعلم، وارحل أنت إن كنت مضطرا للرحيل.

كانت هند تكافح لتنزع كفها من قبضة أخيها المتصلبة، وفجأة تنازل جدي عن كبريائه، وأمسك كفها الآخر، وأمسكت أنا بزندها، متشجعاً بقرار جدي، وشرعنا نصارع لتحريرها منه، وحين أدرك مالك أنه عاجز عن الخروج بأخته، أفلت كفها بيأس، واقترب مني بخبث وقرصني خلسة، وقال بمكر مخاطبا جدي:

ـ على كلٍ، لن أكون متسلطاً لأجبرها على شيء لا تريده، لقد تغير الزمن حقا.

ضربه جدي على منكبه بخفة، وتنحى جانباً، وقال:

ـ اذهب مادمت مصراً على المغادرة، الحياة قصيرة يا بني، لذا يتحتم أن تزورني قريباً، واجلبها بمعيتك لترى أمها المقعدة، فما تفتأ تذكرها طوال الوقت. رافقتك السلامة.

ـ سأخبرها بهذا.

وظل جدي جامداً شارد الذهن يصارع غصصا في، لقد تنازل عن كبريائه كله في لحظة ضعف، وانكسرت جميع خطوط دفاعاته الصلبة، لم يكن قاسياً كما يبدو عليه، بل كان أكثر تمسكاً بالتقاليد، وكانت آخر نظرة ألقاها الخبيث قبل أن ينصرف على وجه الزهراء، وصاحت أمي على إثره بصوت عالٍ مفعم بالقلق:

ـ هيه، انتظر يا مالك، لم تخبرني بعد عما جعل خالك جعفر يتخلف عن المجيء.

صاح جدي بنزق:

ـ ماذا تقصدين؟ ألم يحضر جعفر بعد؟ كنت أحسبه في المسجد.

وأتى صوت مالك من ناحية السلالم:

ـ الكيس الأبيض في الدهليز والخبر كله عند زيد، سأضع أغراض هند بالخارج..

ـ مالك، ألم نتفق....؟

لم يأت منه أي جواب، وصوبت كل العيون سهامها إلي، وشعرت بجسدي مشتعلاً، فأخذت المصباح اليدوي وخرجت إلى الدهليز وحملت الكيس ووضعته وسط المجلس وهم يراقبونني بنفاد صبر، وقلت بالكاد:

ـ هذا ما بقي من أبي.

وبلمح البصر هربت إلى أقصى موضع في الدار خوفاً من العويل، فركضوا على إثري، وقد بدوا مرتابين غير مصدقين، وتناهي إلى سمعي صوت جدي القانط وهو يخاطبهم محتداً:

ـ ماذا تبغون من زيد؟ لقد أخذ الله ولدي جعفر، لن أذهب هذا اليوم إلى المسجد.

وران صمت رهيب على الدار قبل أن يعلو نحيب أمي.

الفصل الثاني

لم يتذكر أبي أمر أخته المنسية إلا عندما تراءت له في الحلم، لم يفصح لنا في البدء عما رآه، خوفاً من اجترار تلك الذكريات السيئة التي تقض مضجعه، وقال لي: "أنا أتحدث عن شيء بغيض وقع قبل عشرين سنة" بهذا الاستهلال بدأ بالكلام ثم تابع مبررا، وكأن هناك من يعاتبه: "عمتك اقترفت أمراً سيئاً حين أصرت على الزواج من ابن فلاح فقير، وكسرت أمر والدها، والقرويون لا يغفرون الأشياء السيئة أبداً، ولا ينبغي تذكيرهم بها الآن، والأسوأ أن الناس يتكهنون بحدوث أمر فظيع قبل الزواج.."

حاول أبي بعد ذلك الحلم الرهيب أن يتجاهل الموضوع، لكنه عجز عن النسيان، بحيث تملكه غضب شديد بعد أن أفاق من نومه، كيف تجرؤ تلك المتمردة على دعوته لزيارتها؟ سأل نفسه بحنق، ثم ثاب إلى رشده، وقرر ألا ينفعل من أجل دعوة خادعة في حلم، لقد مرت أعوام طويلة وشقيقته في المنفى، وكان ينبغي أن تموت بخنجره، لكن والده ـ وهو فقيه عالم بشئون الدين ـ حبسه في حجرة مظلمة، وزوّج ابنته للرجل الذي تريده، ثم نفاهما إلى برية نائية بعيداً عن نظره وسمعه، كان زفافها حزيناً كما لو أنها ماتت، وظل أبي يفكر في قتلها كلما خلا ونفسه، لكنها لم تكن بمتناول يده، ولا يعلم عنها شيئاً سوى أنها قُذِفت وعريسها إلى قرية في البرية تسمى المقهاية، ولا سبيل للوصول إليها إلا بشق الأنفس، وأصيب منذ ذلك الحين بنوبة من

الغضب الحاد، لازمته حتى آخر لحظة من حياته، ومرت الأيام والشهور والأعوام، ونسي أخته تماماً، ولم يذكره بها سوى هذا الحلم اللعين، ما جعله يصاب بالأرق والذهول، وفكر أن وراء هذا سر عجيب لا يعلمه إلا الله، حتى لاحظت أمي اضطرابه وكدره، وسمعته ذات مساء يرشف قهوته بعصبية، مصدراً بعض الصخب، وما لبث أن صاح بوجع:

ـ عجيب يا دنيا..

فقالت:

ـ لست على ما يرام هذه الأيام.

وضع أبي قدح القهوة جانباً، متلمظاً عشاءه، ثم أرجع ظهره إلى الخلف، وعقد أصابع يديه خلف رأسه وبدا متلذذاً بترقبنا، وأخيراً رد بصوت غائر:

ـ أختي فوزية تدعوني لزيارتها، وتخبرني أنها توشك على الموت، وأعظم من ذلك، أنها تطلب أن أصطحب أصغر أطفالي.

هزت أمي رأسها بعجب وقالت:

ـ هل بعثت إليك رسالة تخبرك بذلك؟

ـ لا، لم تبعث خطاباً، بل دعتني لزيارتها في الحلم، وأحس أن ذلك حقيقي، لا شك أنها مريضة، لذلك أود أن أرى قبرها في البرية.

ـ انس أمرها يا جعفر، ستبدو مجنوناً حين تفكر في حلم كهذا.

ـ عشرون سنة مضت دون أن تخطر زيارتها في بالي! أليس هذا جنوناً؟

ـ ما هو الغريب في ذلك؟ الناس يرون ما هو أعظم من حلمك، لقد رأت أمي ذات مرة أباها الميت يحثها على سداد مال اقترضه من أبيك، وعندما أتت إلى والدك بالمال تملكه العجب.

ـ لقد سمعت هذه القصة، لكن الأمر مختلف هنا، لا تدركين أني عاجز عن تجاهل هذا الحلم، وكلما هجعت لأنام، تقفز أختي إلى رأسي لتحرمني النوم.

ـ وهل تفكر في زيارتها حقاً؟

ـ ليس قبل أن أستشير مولانا العارف سراج الدين، أريد أن أفعل شيئاً يريح ضميري، وأتمنى أن تأتيني إشارة تعفيني من زيارة تلك البغيضة.

ـ لم يعد هناك سوى القليل ممن يقفون قرب قبة الولي طالبين استشارته، توشك هذه العادة أن تنقرض، والأمر برمته لا يستحق كل هذا الاهتمام.

تغضن وجه أبي وقال بغضب:

ـ لا تجادليني يا أمة الرحمن، لا شأن لي إن عزف الناس عن هذه العادة، لكني أثق في هذا الرجل الصالح، ولا تنسي أنه أحد أجدادي، ولن أفوِّت فرصة استشارته.

ـ وهل تعتزم أن تأخذ هذا الحمل الصغير فيما لو أشار عليك مولانا أن تقوم بالزيارة؟

ـ إيه، سآخذه لسبب بسيط، فهي تطلب الأصغر، ولكن المشكلة أن أبي يفضله على الجميع.

ـ أرى أن تخبر أباك قبل أن تستشير الولي، فتعفي نفسك من أشياء كثيرة أنت في غنى عنها.

صاح أبي معترضاً:

ـ ماذا دهاك يا أمة الرحمن؟ كيف أجرؤ أن أحدثه عن هذا الحلم؟ لن يسمح لي بالاستشارة، لأنه كما تعلمين لن يقبل أن أصطحب الحمل الصغير معي.

ورمشت أمي بعينيها موافقة ونظرت إلي ببرود، ولم تأخذ الأمر على محمل الجد، كانت تظن الأمر مجرد رغبة عابرة في نفس أبي لن تلبث أن تزول، لقد أطلقت علي لقب الحمل الصغير مذ كنت صغيراً، لتوحي إلى أخويّ محمد وعلي وأختي بضرورة العطف علي، كنت فيما مضى وديعاً وهادئاً، ولكني تحولت إلى فتى شقي منذ أن رافقت التلاميذ، كان معظم الأهالي لا يكفون عن الشكوى من شقاوتي، ويخبرون أمي وأبي أنهم رأوني وأخي محمد الملقب قرد القرية معلقين على شجرة قرب منازلهم، وهم يظنون أننا نرتقي لنختلس النظر إلى بناتهم العفيفات المحتجبات عن الأنظار، ولكن جدي يمنع أبي من معاقبتي، ويوجه التحذير الشديد إلى الشاكي بأن يحترس من الظن السيئ في أحفاده، لأنهم مازالوا أطفالاً يلعبون، وصار الناس

يعتذرون في كل مرة ويشعرون بالخجل أمام جدي، كان أبي يغفر لي إكراما لأبيه أو خوفاً منه، ولكني لا أسلم من نوبة غضبه حين يهيج، فأتعرض لنظراته الخارقة التي لها وقع السياط، بينما يكون بوسعه أن يبرح أخوي ضرباً دون أن يلحقه أي عتب، لذا امتعضا على قرار اصطفائي للذهاب مع أبي، وتوقعا أن تكون الرحلة ممتعة، ولسعاني بالتعليقات الساخرة البغيضة، ثم ارتابا في الأمر، كانت الريبة هي الغالبة في شهر ابريل، وسوء الظن يحضر على الدوام، ولهذا فإن كل شخص يبقى حذراً، ولا يصدق كل ما يسمع، ورغم ذلك تكلم أخي محمد قائلاً بحدة ليست غريبة على طبعه المتعنت:

ـ نحن في عطلة الصيف، ولكنكم تحرمونا من كل ما يبعد عنا السأم، لا أظن العمة طلبت حضور الحمل الصغير بمفرده، ما الحكمة في ذهاب صبي ساذج مثله؟

فتل أبي طرف شاربه الكث، ثم اعتدل في جلسته متحفزاً كما يفعل حين يستثار، وصاح:

ـ أتشك في صدقي يا قرد القرية؟ لقد طلبت عمتك أن أجلب الأصغر، ومن المحتمل ألا يشير مولانا بزيارتها.. إياكم أن تخبروا أحداً بهذا الأمر.

انكمش شقيقي محمد الناحل الذي يحمل صفات قرد حقيقي، بوجهه الصغير، ومهارته في تسلق المنازل والأشجار، ونمو شعر كث في أجزاء متفرقة من جسده، وتولت أمي الرد قائلة بانقباض:

ـ أشعر أنك لا تريد أن تزور شقيقتك يا رجل.

اندفع أبي قائلاً بنبرات جافة:

ـ يا لكم من مغفلين، أتظنون أني سأستمتع بالسفر إلى القفر الأسفل وبمعيتي هذا الحمل!

ـ ماذا تعني يا جعفر؟

ـ يشاع أنها برية جافة مقفرة تعج بالوحوش والمتاعب، ولا أحد ينجو منها، وأظن أختي وزوجها من عداد الموتى.

قفزت أمي بشكل مباغت، وجذبت شارب أبي الكث، ودوى صوتها عالياً:

ـ برية ووحوش! هل أنت مجنون؟ لن يذهب أحدٌ إلى هناك إلا بعد أن تخمد أنفاسي.

ظهر الألم في وجه أبي الصخري، ودارت عيناه دورتين في رأسه، ثم احمرتا غضباً، وقال بصوت هادئ يخدر الأعصاب:

ـ ارفعي يدك عن شاربي يا أمة الرحمن، لم يلمسه أحد من قبل.

سحبت أمي أناملها المرتجفة، وظهر الندم والخوف على ملامحها، ثم انفجرت باكية، وأسرعت إلى غرفتها بعجل، وهي تبدو حانقة متجهمة، وفي الواقع كانت مرعوبة من نظراته القاتلة، كان أبي فقيهاً غضوباً يفقد عقله بسهولة، لكن سرعان ما ينطفئ غضبه بعد قليل من اللحظات، ومن ثم يلوح الندم على عينيه الواسعتين، ويستغني بذلك عن طلب الصفح، وقد يقدم أي تنازل أو غرامة ماعدا الظهور بمظهر المستغفر الذليل، حتى إنه لا يستغفر الله رغم مشاعره الدينية النقية،

ويلومه إمام المسجد على كبريائه الذي لا يجوز أن يتسم به سوى الخالق المعبود، وينصحه أن يكون فقيهاً صالحاً ذليلاً، لكنه لا يستطيع أن يستغفر على ذنب لم يتعمد أن يفعله، ويظن نفسه وعائلته منزهين عن الأخطاء، وإن اقترفوا أي ذنب فإن الله لا يتردد عن الصفح عنهم، وعندما يركب الإمام العناد، ويحاول إجباره على التذلل والاستغفار، تتسع عيناه وتنتفخ عروق رقبته، وتكون تلك علامة عن دنو لحظة انفجاره، فيلوذ إمام المسجد بالمحراب، فقد حطم أبي أجساداً وأذرعاً كثيرة في وقت سابق، لذا يحترم الأهالي قوته، ويحذرون من انقلاب مزاجه المفاجئ، ويطلقون عليه لقب الفقيه الغاضب، لأنه عندما يغضب يمكن أن يهدم بيت الله على رؤوس المصلين، وفي تلك الليلة هربت أمي من أمامه مؤثرة السلامة، كما تسلل إخوتي، وابتعدوا سائرين على رؤوس أصابعهم، وتركوني وحيداً بجانبه. رأيته يمد يده بانفعال ويمسك بصحن العشاء المعدني العريض، ويلويه حتى حوّله إلى كتلة غريبة غير محددة الشكل، فهرولت مبتعداً، لأشرح لهم ما حدث للصحن، فسدّت أمي فمي براحتها وسحبتني إلى فراشي، وجعلت تحذرني من الكلام أو الضحك، لأن أبي ثائر كالمجنون، وأعادت لي كلامها المخيف عن الوحوش التي لا يسرها أن تسمع طفلاً يضحك بصوت عالٍ، وأخذت تهزج لي بصوتٍ خفيض: "يا وحوش الوادي، سامحي أولادي، الصغار قد ناموا، والكبار قد قاموا.. يا وحوش الوادي، نسلنا غالي غالي، وبيتنا عالي عالي، والقمر سامر سامر، والرجال والعساكر، مسلحين بالخناجر.. يا وحوش الوادي...

وتستمر الأنشودة في تصاعد رتيب لتحث الوحوش أن ترحل، لأن جميع الظروف غير مواتية لها، وأن تبتعد إلى قرية أهلها كسالى

وجبناء ذوي أنساب وضيعة، وكلابها تفر من الثعالب، وأطفالها تضج بالبكاء.. وشعرت بالحنق، لأني أصبحت في عمر لا يجدي معه النشيد للنوم، فقلت بحدة:

ـ ماذا تفعلين يا أمي؟ لم أعد طفلاً كما ترين.

فتبسمت بعسر، وضحك أخوي بتشفٍ، فتركتنا وخرجت.

الفصل الثالث

كان يوم جمعة على ما أظن، بل هو كذلك بالتأكيد، إذ شرعت أمي وشقيقتي تنظفان الدار، وتسخنان الماء من أجل الطهور، ويكون جدي أول شخص يغتسل في الدار، ثم أبي وأخوي محمد وعلي. وكل فرد في الأسرة يخضع لنظام الأسبقية في العمر، فالكبير محل ثقة واحترام، بحيث يأمر ويزجر الصغير دائماً، كما تظهر بجلاء سلطة الذكور، وبات بوسع أي منا أن يصرخ في وجه شقيقتي الزهراء، ولولا مناصرة أمي لها لكانت من عِداد المقهورين، بحيث باتت العصا تقع على ظهر أي فتى يسيء إلى ابنتها الوحيدة التي تساعدها في أعمال المنزل.

كنت قد أفقت من النوم، ورأيت أمي مشرقة الوجه تتحرك بنشاط نحلة جانية، لم أكن خبيثاً كما هو حالي اليوم لاعتقد أن منبع ذلك هو ليلة بهيجة قضتها وأبي على الفراش، لم أدرك بعد ما يفعله الرجال والنساء حين يوصدون غرفهم في المساء، لكن أمي كانت مشرقة الوجه، بحيث بدت سعيدة بوضوح، وخدمت أبي بنفسها وهي تتبسم بخجل، ما أثار غيرتي، وصرخت بملء الصوت لتنتبه إلى وجودي، وسرعان ما أفلحت في جذب انتباهها، فأقبلت إلي وجذبتني إلى الحمام، فرفضت أن أسمح لها أن تغسلني، وفي هذه المرة أذعنت وخرجت، فاغتسلت فرحا باستقلالي ونشّفت جسدي بنفسي، ولبست ثوباً نظيفاً، ثم نثرت عليه رشة وحيدة من العطر الرخيص الخاص بأبي والذي كف عن استخدامه، لأنه لم يعد يرى في ذلك ضرورة

لتحسين رائحته، فقد صار لا يهتم بمظهره، وبات يتحدث عن ضرورة التحلي بالفضيلة والأخلاق، وهذا ما يردده الفقهاء على الدوام، كان ذلك اليوم هو اليتيم الذي شعرت فيه بما يدور بين والديّ، وأصابني ذلك بالاستياء، ربما لأنهما لم يكونا يبدوان متحابين، كانا كتومين متحفظين لا يبديان مشاعرهما أمامنا، لكنهما وبشكل غريب اصطلحا منذ أن جذبت أمي شاربه الأسود الذي يعتني به ويجعله رمزاً قوياً لهيبته كرجل، وأظنها ندمت لأنها لم تفعل ذلك من قبل، فقد حطمت قداسة هذا الشيء الكث الشعر، ولم يحدث أي مكروه للعالم.

كان أبي هو الآخر قد أفاق نشيطاً، وصار ينظر إلى أمي خفية بشيء من الوقار، ثم ذهبنا إلى المسجد. وليتنا لم نفعل، إذ كان إمام المسجد واقفاً على المنبر يعظ المصلين، يعظ المصلين عن أهمية زيارة الأرحام، ويقصد بالأرحام هنا النساء القريبات، ورأيت الاغتمام يلوح على وجه أبي، أظنه نسي أمر زيارة عمتي فوزية، ولكن الموعظة نكشت عاطفته، وعقب الصلاة خرج المصلون وأخذوا يتصافحون كما جرت العادة، وصافحنا جدي باحترام، وأوشك أن يمسك بيدي ويصطحبني إلى الدار، لكن بضعة مصلين أخذوه بعيداً ليخبروه عن أمر ما، وطلب أبي مني أن أتريث حتى ينهي صلاته الفرعية، وبقي يركع ويسجد حتى غادر آخر رجل وهو إمام المسجد، فخرجنا إلى الفناء حيث يقبع مزار مولانا العارف سراج الدين، كان الضريح ممددا تحت قبة عظيمة لها باب صغير موصد، وهناك نافذة مفتوحة لاستقبال نذور وهبات الزوار، وكلها تذهب إلى ترميم وتنظيف المزار، وقف أبي بخضوع مقابل نافذة النذور، ووهب الولي أوراقاً عديدة من

النقود، تمزق قلبي عليها أسفاً، ثم أمرني أن أقذف عملة نقدية إلى الداخل، ففعلت مكرهاً، وسمعته يبتهل ضارعاً:

ـ يا رب، بجاه تربة مولاي سراج الدين الطاهرة، أن ترشدني بإشارة واضحة، هل أمضي وصغيري هذا قُدماً لزيارة شقيقتي المنفية أو لا أفعل، وهل نسير بالأقدام أم بالسيارة؟

ووضع جبهته على جدار الضريح، وأغمض عينيه، بل غاب بضع دقائق في مناجاة غامضة واتصال روحي صامت، وهو بذلك لم يكن ينتظر أن يسمع رداً حقيقياً من الولي الميت، ولكن الجواب كما يعتقد سيأتي حتماً بطريقة أو بأخرى، وعندما خرجنا جعل يراقب الطريق، ويصيخ السمع متلفتاً حوله بقلق، كان الناس في قريتنا يستشيرون صاحب الضريح كلما أعياهم شأن من الشئون. ثم ينتظرون الإشارة من خلال أول متحدث يسمعونه في طريقهم، وهكذا سرنا وسط القرية عائدين باتجاه الدار وأبي ينتظر تلك الإشارة المجهولة، كان الطريق خالياً، وأصوات الناس تأتي ضعيفة من منازلهم، ولا نستطيع سماعها. وما لبث أبي أن أفصح عن يئسه في الحصول على إشارة في مثل هذا الظرف، ثم لمحنا الحاج غانم يقفل دكانه وهو يصيح بعصبية على ابنه الوحيد علوان، فتسمر أبي بمكانه، وأجبرني على الوقوف بإشارة حادة من يده، وأخذ ينصت باهتمام. كان الحاج غانم يخاطب علوان قائلاً بغضب:

ـ لقد وضعت أختك طفلاً مطلع هذا الصباح. لذا أريدك أن تأكل شيئاً خفيفاً، وتذهب إليها، وتطلعنا على أحوالها. ألا تفهم؟

رد علوان محتجاً:

ـ هذا الوقت غير مناسب للزيارة، كما تعلم قريتها بعيدة، وإن شئت أن أذهب حقاً بوسعك أن تعطيني مفتاح السيارة.

ـ اذهب بقدميك أيها الكسول، فالقرية تقع خلف هذا الجبل. هيا، دع الشحوم المتراكمة في جسدك تذوب، وسوف تشكرني حتماً. هيا.. اذهب إلى أختك..

وانصرف علوان وهو يصيح باحتجاج:

ـ كل هذا يحدث بفعل موعظة إمام المسجد، أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه.

وحين التفت الحاج غانم ورآنا واقفين قال بتوتر:

ـ ماذا تريدان؟ لقد أقفلت الدكان، أنا ذاهب للغداء.

رفع أبي كفه في الهواء وأجاب بغضب:

ـ ما هذا الكلام الجاف يا حاج غانم؟ لن نشاطرك طعامك أيها البخيل.

ـ سامحني يا فقيه جعفر، لقد وترني الولد، تصور أنه يريد السيارة ليزور أخته في القرية المجاورة!

ـ اللعنة على كل البخلاء، كنت ستعطيه السيارة، وليذهب على نفقتي الخاصة.

ـ ما يدعوك لفعل هذا يا رجل؟ أعرف أنكم أشخاص ميسورون، فيما نحن نكد ليل نهار..

انصرف أبي حانقاً دون أن يرد عليه خشية أن يثور غضبه، ومن ثم يقترف جريمة في ذلك اليوم المبارك، هكذا برر ابتعاده عن الرجل البخيل الذي لا يدرك أن بخله سيكلفنا غالياً، ثم قال باغتمام:

ـ كما ترى، إنها إشارة واضحة، ولسوء الحظ أن تأتي من رجل يخشى على إهدار قليل من البنزين، وهذا يعني أن نسير على الأقدام مسافة طويلة.

ودخلنا الدار، ثم عرجنا على حجرة جدي، فانحنى أبي على ركبتيه كما يفعل الأبناء المطيعون، وانحنيت بدوري، لكن جدي رفعني حالاً، وأجلسني قربه لما لي من حظوة، كان ذو جبين ناصع، ووجه مائل للصفرة، وعينين قاسيتين تكسبانه نظرة حازمة، حاجباه كثان مجعدان يتحركان للأعلى والأسفل حين يتكلم باهتمام، ولحيته المشذبة تمنحه ذلك الوقار الذي يتمتع به الفقهاء، جسده الفارع بدأ بالانحناء، وهي علامة غير جيدة من علامات الشيخوخة، كانت جدتي المقعدة مازالت تصلي، وبدت بجسدها الضامر ضئيلة تحرك شفتيها بانهماك، ولم يتسن لنا تقبيل رأسها أو إزعاجها بالحديث، فخرجنا إلى حجرة فسيحة مجاورة، وشرع أبي يحدث جدي عن الحلم والاستشارة، وما سمعناه من كلام الحاج غانم، وفي النهاية سأل بارتباك:

ـ ماذا تشير علي يا أبي؟

أمسك جدي شحمة أذنه، وجعل يقرصه قائلاً بسخط:

ـ كان عليك أن تتجاهل أمر ذلك الحلم اللعين.

ـ ماذا علي أن أفعل الآن؟

ـ اسمع أيها العاق، لم يدر في خلدي أن أحداً من أبنائي سيفكر في زيارة تلك المرأة العاصية!

ـ سأذبحها كالنعجة إن شئت.

ـ حين ذلك سوف ترتكب جرماً فادحا أيها البغيض.

واسترد جدي أنفاسه اللاهثة، ثم أعقب دون أن يفلت أذن أبي:

ـ أنا غاضب منك، لأنك استشرت دون أن تخبرني، ثم تأتي إلي في النهاية لتطلب مني أن أشير عليك بما تفعل!

ـ أنا رهن إشارتك يا أبي، ولن أذهب إن شئت.

ـ لا يعنيني أمرك، وما يغضبني هو أن تأخذ حفيدي إلى قلب تلك البرية الموحشة.

ـ هل آخذ أحد أخويه بدلاً عنه؟

صاح جدي بنزق:

ـ فات الأوان أيها الكلب الأعور، اذهبا حالاً لزيارة تلك المرأة العاصية، ولتكن مشيئة الله.

وأفلت أذنه وهو يلهث بفعل الغضب، وكان لا ينعته بالكلب الأعور إلا عندما يكون ذنبه جسيماً، لم يكن أبي شخصاً مسالماً، بل كان يصرع أي رجل يتورط معه في نزاع، وأحيانا يأتي المصابون إلى جدي ليقتص لهم، فيقرص أذنه ويذله أمامهم حتى يرضون، وحين يصير أمامه يبدو خانعا ذليلا، وهذا لم يعجبني، حتى شعرت ناحيته بالشفقة،

بحيث بدا النفور على وجهي واضحا، فرمقني جدي بنظرة ودودة مشفقة، وهو يظن أنني حزين لفراقه، وضمني إلى صدره ملياً، ثم مسح على رأسي وهو يقول بارتباك:

ـ اذهب يا زيد، ليحرسك الله.

كانت أصابع كفه ترتعش بانفعال، وصورته الشاحبة الحزينة توحي بأنه يائس من اللقاء، وكنا على عجالة، بحيث ودعنا جدتي المقعدة التي فقدت بعض حواسها، ولم نجد متسعاً من الوقت لنشرح لها ما يجري، وعندما خرجنا من الطابق الرابع استبدل أبي خجله بهالة من العبوس والتقطيب، وعدل من وضع عمامته المائلة، وبدا متوثباً وكأن الأمر قد حُسم، وأن الله قد اختاره دون غيره ليقوم بهذه المهمة الصعبة، في تلك الأثناء تملكه الجِدّ والتصميم، ورأيت وجهه متصلباً قاتماً، وقال بصوت هادر وكأنه يخاطب ضميره المكلوم:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، توكلت على الحي القيوم.

ثم التفت إلي وأمسك كفي قائلاً بصرامة:

ـ سوف نذهب يا زيد، ليكن الله معنا.

تألمت من قبضته القوية وصرخت، فأرخى أنامله الخشنة، وقادني بسرعة إلى طابقنا، وهو يلمس شاربه الكث بسبابته وإبهامه، ثم اقترب من نافذة مجلسه، وشخص متطلعا إلى الأفق، وما لبث أن أعلن أن الوقت مناسب للرحيل، وشعرت بقدر كبير من الفرح، لا أنكر ذلك، كنت فتى غبياً مثل كل الفتيان الذين تتملكهم روح المغامرة، ويتوقعون أن يظفروا بكثير من الأشياء المبهجة، ولم آخذ مخاوف جدي

بالحسبان، كما لم يسرني أن أراه وهو يقرص أذن أبي، ويهينه، فكرت في هذا الأمر، ولاحظ أبي وجومي فقال:

ـ لا تخش شيئاً، لن يحدث لنا أي مكروه.

قلت بصوت حاد:

ـ لا أفكر كما تظن، لقد قرصك جدي في أذنك. إنه رجل غشوم.

ـ لا تهتم، إنه أبي على كل حال.

ـ ولكنك لا تقرصني في أذني كما يفعل بك!

ـ هذا لأنه ينهاني عن ضربك، ولكن إياك أن تسيء التصرف أثناء السفر، فإنك لن تجده إلى جانبك.

وأكلنا شيئاً خفيفاً كما ينبغي أن نفعل، ثم مضينا نتأهب ونجمع أغراضنا، في حين خرجت شقيقتي الزهراء بسرعة، وأطعمت الحمار وسقته، ووضعت البردعة على ظهره، ثم ملأت المخلاة ببعض الكعك والماء، وأخذ أبي عصا وخنجراً وحبلاً قصيراً متيناً وسراجاً وزيتاً ومصباحاً يدوياً وبطاريات احتياطية ودثاراً بالياً، كما دس مسدسه العتيق تحت حزامه، وأفرغ شريطاً من الرصاص الحي في كيس متوسط الحجم، ورمى الكيس في المخلاة بلا حماس، كان ذلك المسدس الروسي العتيق يخذله في الغالب، ويكون محظوظاً إن انفجرت عبوته للوهلة الأولى، حتى صار يردد على الدوام بأن هذا السلاح الملعون يعوزه خرقة وقليل من الزيت لإزالة الصدأ عن

أجزائه الداخلية، وفي هذا اليوم شعر أن ذلك بات حتمياً، فصاح بشيء من الغضب:

ـ اجلب الخرقة والزيت يا قرد القرية.

أسرع أخي محمد، وجلب له تلك الأشياء، فأفرغ الرصاصات من المسدس تفادياً للخطأ، وفك الماسورة والترباس وحامله، وصار يسكب الزيت ويمسح تلك الأجزاء المتآكلة بعجل، ولعله قام بذلك ليرضي نفسه المتوجسة، كانت أمي تدرك خطورة الموقف، فجعلت تماطل في تقديم الأدوات التي يطلبها عسى أن تفتر همته، ويتراجع عن قراره بالسفر، لكنه صرخ بصوت غاضب:

ـ أين الأدوات التي طلبتها يا أمة الرحمن؟

ـ حالا.

واضطرت مرغمة أن تقدم لنا تلك الأشياء، ثم قامت بآخر ما تستطيع للحيلولة دون حدوث هذه الرحلة المشئومة، فخرجت دون أن نشعر، واستنجدت بالأهالي، واستجاب بعض الرجال العقلاء الذين عركتهم الحياة، وأتوا وهم يفكرون بحلول وجيهة، واقتربوا منا بحذر، وحدثوا أبي بلطف شديد، وأدلى كل رجل بما لديه لاسيما كبار السن، غالبيتهم اتفقوا على أننا في طريقنا إلى أرض ملعونة لم يجتزها أحدٌ سيراً على قدميه، ولا يسير فيها سوى شخص مجنون، أو شخص محبط يريد أن ينهي حياته، ونظروا إلي نظرة ذات مغزى، وقالوا مشفقين إن هذا الفتى الهزيل لن يحتمل الطقس الحار الخانق، وإن نجا من الطفح الجلدي والحمى لن ينجو من الوحوش وقطاع الطرق، وإن كان هناك

بُدُّ من اصطحاب أحد الفتيان فينبغي أن يكون أكبر سناً، وظهر إمام المسجد بشكل مفاجئ، متحمساً ممسكاً ثوبه المسترسل إلى الأرض، كان قد وعد أمي أن يثني أبي عن سفره، ولكن ما إن سمع الغرض من الزيارة، وشيئاً عن الحلم والاستشارة، حتى غيَّر رأيه، وأعلن أن أبي صاحب مهمة محفوفة بالعناية الإلهية، ولا يجوز أن يعترض طريقه أحد، وتصدى للرجال الناصحين قائلاً بغضب إن الله يقف في صف الأشخاص المثابرين الذين ينشدون فعل الخير، وأن على المرجفين أن يسكتوا، ويتركوا الرجل ينفذ أمر الله، ويجيب ذلك النداء المقدس، فهنيئاً للرجل المختار لهذا السفر، لأن الأنبياء فقط من كانوا يحظون بمثل هذه المميزات.

وأنكر الأهالي أنهم اعترضوا على سفره، معاذ الله.. هكذا عبروا، لا أدري هل قالوها بتهكم أم اقتناع؟ وربت إمام المسجد على كتف أبي محملقاً عينيه في وجوه من حوله، وأخذ يفح بتأثر وهو يوشك على البكاء، كانت عيناه مغرورقتين بالدموع فعلاً، وما لبث أن دفعنا لنمضى في سبيلنا، مؤكداً أن هناك شيئاً جميلاً ينتظرنا. فقد نلقى الله أو نراه جهرة كما حدث لموسى، وحين سمع أبي ذلك تأثر وشرع يغالب البكاء، ليس حزناً على نفسه وفتاه، بل فرحاً بما سمع، ونظر إمام المسجد إلى أمي الحزينة القلقة، وأقسم أن الله لن يدعنا نجوع أو نتأذى، وطلب منها ألا تحزن، فأمسكت بذراعي وبالكاد قالت متوسلة بصوت مخنوق:

ـ مولاي، ليذهب الرجل الكبير، وليبق الصغير إلى جانبي.

فسرد لها الإمام قصة إبراهيم عندما ساق ولده إسماعيل إلى المذبح، ليقدمه قرباناً لربه، فافتداه الله بكبش سمين، وهي حكاية سبق أن سمعتها أمي وتؤمن بأنها صحيحة، لكن الشك يومئذٍ ظهر في عينيها ممتزجاً بالحيرة، ذلك أن أبي رجلٌ لا يتسم بشيء من الكرامات، ولا يقطع الليل راكعاً وساجداً، لم تقل ذلك صراحة، لكن نظراتها المرتابة بعثت هذه الرسالة، وظلت تتكلم بأسى عن خوفها، حتى ظهر جدي من النافذة متجهماً وأشار لنا بيده أن نرحل ثم اختفى بسرعة، وكان هو الشخص الذي كنا ننتظر قراره الأخير، وساعدني أبي على ارتقاء ظهر الدابة، وساقها مفعماً بالحماس، وزغردت بعض النسوة اللاتي سمعن خطاب إمام المسجد المؤثر، وركضت أمي خلف الحمار وهي تبكي وتقول بصوت مختنق:

ـ دعوني أودع الصغير.

وطبعت في وجهي قبلات عنيفة، ثم تركتني ونظرت إلى أبي بشيء من الحرارة، ومدت أناملها لتمسك كفه، لكنه أبعد يده متذرعاً بالعجلة، وطلب منها العودة إلى الدار. تمنيت أن تصطحبنا أمي إلى خارج القرية، لكنها آبت يائسة، شعرت بالحنق ونظرت إليه بامتعاض، فحدثني أنه خشي أن تتسرب العاطفة إلى روحه، ومن ثم يتأثر ويضعف حماسه، ثم سرد لي ما جرى بين الشيطان وحواء وآدم في الفردوس الأعلى، وهي حكاية غريبة سمعتها مراراً، وحاول هنا أن يقنعني أن أُمنا الأولى "حواء" ساعدت الشيطان على إخراجنا من الجنة، تكلم بثقة عالية وكأنه شاهد عيان على تلك الحادثة، ومع ذلك استطاع أن يصرفني عن التفكير في أمي، وقضى على حنقي. وبقيت صامتاً أفكر في الرحلة، كانت الطرق ملتوية ذات انحدار شديد، وفي

المناطق الوعرة كنت أترجل عن الحمار ليتسنى له العبور بسلام، فأمشي أحياناً حتى يحمر وجهي وتتباطأ خطواتي، ثم أعود لأركب الدابة. والتقينا بكثير من عابري السبيل والقرويين، كانت منطقتنا في القفر الأعلى مكتظة بالسكان، والقرى متجاورة بحيث يمكنك أن تصرخ لرجل إلى القرية الأخرى فيجيب نداءك بعد عدد من الأصوات، وشعرت بالزهو ونحن نقابل بعض معارف أبي، وهم أشخاص طيبون راشدون يحترمون الفقهاء، وقد بشوا في وجهي وسألوني عن حالي، فكان أبي يرد بصوت رنان:

ـ هذا ولدي الفقيه زيد، إنه بخير لا يشكو من شيء، نحن في طريقنا لنزور امرأة مريضة من أقاربنا.

كانوا ينحنون أمامنا إجلالا، ويتمنون لنا التوفيق في هذا العمل النبيل، ولكن مع مرور الوقت، وكلما ابتعدنا في السير، انخفض عدد هؤلاء الرجال، كانت الطبيعة متشابهة، وكنا نسير دون توقف، نجتاز قرى تلو قرى، ونقابل رجالاً غرباء ونساء كادحات يمشطن الحقول، وحيوانات ترعى، وأخرى يقودها الرعاة إلى الزرائب. واستمر أبي يحدثني عن أهمية هذه الرحلة، ونصحني أن أتسم بالصبر وأن أكون رجلاً صنديداً، لأن الرجال جبلت على تحمل الأعمال الشاقة وعبور الطرقات الوعرة من أجل جلب الأرزاق، بينما النساء خلقن للإنجاب وتربية الصغار والعمل المنزلي، وأخبرني أن للحياة وجه مظلم عكر، وأن هنالك سعادة أبدية في الحياة الأخرى، وأن المعذبين في الأرض سوف يسعدون في النهاية، لم أفهم كيف استنتج أبي أن الأشقياء سينالون السعادة فيما بعد. ولم أحب أن أسأله رغم حيرتي الشديدة، لأنه لن يتوقف عن الوعظ، كان يتكلم بوقار وجدية ولا يتبسم البتة،

وكأننا شركاء في لعبة من يضحك هو الخاسر، والتي كنا نلعبها في المدرسة أثناء الراحة.

كنت أنزل عن ظهر الحمار، وأحاول أن أكسر رتابة السير وآدابه، فأمسك بالأحجار الصغيرة، وأطوح بها بعيداً في الفراغ، وأحياناً عندما نكون على منحدر حاد أدحرج كتل الحجارة إلى الأسفل، وأصغي لصوت ارتطامها ومشهد هبوطها المخيف، ثم نهرني أبي بصوت لاذع، وحذرني أن أصيب أحد الرعاة أو المحتطبين بمقتل. وفعلاً سمعنا صرخة شخص تدوي من عرض المنحدر، ورأينا راعياً يصيح بانفعال واضعاً إصبعه على خادعه، وكأنه يسألنا هل نملك شيئاً من العقل؟ فاختبأت خلف الحمار، وغضب أبي كعادته ونصحه أن يبعد أغنامه عن الطريق، لأنها سوف تدحرج الأحجار علينا عندما نصل إلى أسفل المنحدر، فانكمش الراعي وقال شيئاً لم نسمعه، وأفصح أبي أن الراعي سيغادر المرعى حالاً، لأن الشمس قد غابت، ولما بلغنا نهاية المنحدر سقطت من الأعلى أحجار ثقيلة، فاحتمينا وراء الحمار المسكين، وكاد أحدها أن يسحقنا، فابتعدنا بسرعة عن الطريق، ونظر أبي إلى الأعلى وصاح بصوت رهيب:

ـ ابتعد أيها الراعي اللعين عن طريق الفقهاء، أو أدعو الله أن يحولك إلى نعجة قبيحة..

فرفع الراعي كفه باستهزاء، وابتعد بأغنامه، لقد فعل ذلك عمداً، أوضح أبي بسخط، وهو ينتفض غيظاً، وظهرت علامات الفزع في وجهه المشدود، وقال مبرراً خوفه:

ـ لقد أوصانا الله بتوخي الحذر، لذا ينبغي أن نحافظ على أرواحنا، فمازلنا في بداية الطريق.

استغربت من قوله، إذ كنت أظن أننا اقتربنا من وجهتنا الأخيرة، فقد غربت الشمس واختفى الشفق، وبعد قليل سوف يحل الظلام، ونصحني أبي أن أرتدي معطفي الصوفي الأسود، وأن أتأهب لقضاء الليل في فناء مسجد أو مغارة، فأفصحت بأن الأهالي يستضيفون الفقهاء، وبأنه فقيه ذائع الصيت يعرفه جميع الناس، وسمعته يطلق ضحكته الساخرة النادرة، فاغتظت بشدة، لأني كنت جاداً، ولا أجد ما يدعو للضحك، فأوضح لي أننا خرجنا من حدود منطقتنا، وانتهينا إلى مكان بعيد ليس لنا فيه أي معارف. وهناك سوف نعد غرباء، والأهالي وإن كانوا يسمعون عن قريتنا، أو يميزون أشكال الفقهاء، لن يعتبرونا أكثر من عابري سبيل، وأعلن بثقة أننا سنكتشف ذلك عندما نمر بأقرب قرية، حيث يتحتم أن نقيم فيها فريضة المغرب، وفعلاً دخلنا قرية عتيقة مكومة على سفح حيد صغير، ولم يكن صعباً أن نعثر على مسجدها الأبيض، كانت الكلاب تنبح من مكان ما، فاضطر أبي أن يربط الحمار على ساق شجرة محاذية للمسجد، وأخذنا أغراضنا ودخلنا متهيبين إلى فناء مرمري تتوسطه بِركة تحتفظ بقليل من مياه خضراء مليئة بالطحالب، وقابلنا بعض الرجال البائسين، ونظروا إلينا بفضول وتساؤل، وحياهم أبي بالتحية المألوفة، السلام عليكم، وهمس لي أن أحذو حذوه، ولم يعبأ بنظراتهم، بل نزل إلى البِرْكَة عبر درجات صغيرة مبللة يعوزك المهارة لتفادي الانزلاق فيها، وشمر مئزره إلى وسطه، واغترف بكفه بعض الماء إلى خصيتيه ودبره، فتجرأت وفعلت مثله. ثم ذهبنا للصلاة واصطففنا قرب المصلين،

وغالبيتهم رجال راشدون ومسنون، وحشرني أبي قرب رجل راشد في الصف الثاني، وأثناء الصلاة حاول شخصٌ أن يجذبني إلى الخلف، فأمسكت كف أبي بشدة، فارتفعت دمدمة صوته محذراً، ما جعل الرجل يفرج عني في الحال، كنت أعرف أنه يبغي احتلال مكاني، وفي قريتنا يحتل الرجال الراشدون الصفوف الأولى خلف الإمام، فيما يقذفون بالصبيان إلى الخلف دائماً، ولكنا هنا بمكان غريب، ولم أشأ أن أبتعد من جوار أبي.

كان الإمام المسن يقرأ القرآن بصوت متعب، ويسعل بشدة، وصرت أتحرك بتململ، وأشعر بحكة في كاحلي، وبات رجل من الأهالي يلكزني وكأنه يطلب مني الخشوع في صلاتي، وبمجرد أن انتهينا، تنحى المصلون جانباً، وأخذوا المصاحف من الأرفف، وجعلوا يرتلون الآيات بأصوات عالية متداخلة، وأخذ أبي القرآن وخاض مع الخائضين، فأرهقني سماع أصواتهم الفجّة، فأخذت مصحفاً، وفجأة أتى رجل ونزعه من كفي دون كلام، ورفعه إلى رأسه باحترام، ثم أعاده إلى مكانه متجهماً. أشار أبي إلي أن أجلس قربه، فجلست بامتعاض، ورحت أتأمل وجوه القرَّاء، بدت وجوههم صفراء باهتة على ضوء مصباح الكيروسين، ومرت ساعة طويلة من الزمن حسبتها دهراً، ثم قمنا لصلاة العشاء، وعندما انتهينا فر معظم المصلين من المسجد، ومضوا إلى منازلهم دون أن يعيرونا أي اهتمام، بقي شخص واحد ملتحٍ يرتدي سروالاً أبيض تحت مئزره، ظل يصلي منفرداً صلاة منفعلةً متكلفة، وهو الرجل عينه الذي نزع المصحف من يدي، فتأملته بفضول حتى تعبت من النظر إليه، وعندما

انتهى من صلاته الطوعية الطويلة اقترب من والدي وقال يخاطبه بخشونة:

ـ ألا تنصرف يا أخي لكي أغلق المسجد؟

قال أبي بصوت هادئ:

ـ لكني أفضل البقاء هنا حتى الصباح.

ـ لا يجوز النوم في المسجد، لأن ذلك يترك رائحة نتنة تؤذي المؤمنين.

ـ أنت من يجب أن يخرج، لأن لديك بيت دافئ في القرية.

ـ اسمع يا هذا، أعرف أنك ترتدي ملابس الفقهاء، ولا تضم يديك أثناء الصلاة، وهذا شأن يخصك وحدك! لكن...

ـ نعم، أنا فقيه وأجدادي من الأولياء الصالحين، وتلك هي طريقة صلاتي، وقد أخذناها عن أولئك الأخيار. أهناك ما يمنع؟

انتفخت أوداج الرجل، وهجم على أبي قائلاً:

ـ هيا، أخرج حالاً، لا يعنيني أن يكون أجدادك من الصالحين أو الطالحين، هذا مسجد وليس حجرة نوم!

والتقى الرجلان الراشدان كثورين جامحين، وتدافعا في البداية بشكل هادئ، وكأنهما لا يبغيان إزعاج الأرواح الطاهرة الخفية التي تحف بالمكان المقدس، ثم اشتبكت الأيدي، وكل منهما حاول أن يكسر الآخر. لم يسبق أن رأيت رجلين راشدين يتصارعان في مسجد أو

حتى في الشارع! كنت أرى الديوك تتعارك أحياناً وسط حظائرها القذرة، ولا يثير ذلك في نفسي أي قلق، بل كان مصدر تسلية كبيرة لي، وراودتني تكهنات مختلفة، لعلهما يقومان بنوع غريب من الصلاة! أو يلهوان حيث لا يجب اللهو! كان الرجلان متساويين في الطول، ومتقاربين في الحجم، ومختلفين تماماً في الشكل والملبس.

رأيت صدغا أبي منتفخين مبللين بالعرق، يلمعان تحت الضوء الأصفر الخفيف، وهو يحاول الثبات بموضعه بينما الرجل يجذبه بعنف ليجبره على المغادرة. كانا يتفاوضان في البدء وكل منهما يتكلم في الوقت عينه. ثم ارتفعت بينهما وتيرة الصراع، وشرعا يدقان أرجلهما على الأرض بشكل مخيف كما تفعل الثيران حين تتناطح، فأدركت حينئذٍ أنهما لا يمارسان طقساً تعبدياً ولا يلهوان، بل يقتتلان بضراوة، وشعرت بخوف شديد، وابتعدت عنهما صارخاً بفجيعة، والتفت أبي ناحيتي، فسدد الرجل إلى رأسه ضربة قوية أطاحت بعمامته أرضاً، فانتفض جسد الفقيه المهان وكز على أسنانه بقوة، وسدد للملتحي صفعتين رهيبتين، ثم جذبه من ثيابه وجرَّه بعنف حتى رماه في الفناء، فابتعد الرجل متوعداً، وعاد أبي إلى عمامته، وأخذها بحدب، وأعادها إلى رأسه بيدين متشنجتين، ثم تنهد بصوت مسموع، وأتى وجلس إلى جواري صامتاً متجهماً، وظل صدره يعلو وينخفض بعض الوقت، حتى استطاع أخيراً أن يقول بإعياء:

ـ ما كنت أريد أن تسير الأمور هكذا.

كانت تدور في رأسي كثير من المخاوف، فقلت بتذمر:

ـ أريد أن أعود إلى جدي.

انتفض أبي، وصاح بنبرات مشدودة:

ـ كن رجلاً يا زيد، أنت تنتمي إلى والدك، ومكانك هنا معي، وقد شاء الله أن ترافقني في هذه المهمة العظيمة، وإذا قدر لنا العيش سنظل فخورين بما فعلناه.

لم اقتنع بما قال، ولعله لاحظ ذلك، فتابع مشجعاً:

ـ ألم تسمع قول إمام مسجدنا؟ إنه رجل صالح كما تعلم، وقد باركنا وأجازنا، ولا شك أن المعاناة سوف تخفف من أوزارنا وتطهرنا.

كانت عيناي تنعسان، والجوع ينهشني، فقلت:

ـ أنا جائع.

مضى ينبش وسط الأغراض حتى أخرج كعكتين من المخلاة، وناولني واحدة قائلاً:

ـ كان يعوزنا بعض القهوة، لكنا هنا لا نستطيع أن نصنعها.

أكلت كعكة، ثم أمسكت بالأخرى، وقبل أن أدنيها من أسناني المتأهبة، تناهت إلينا أصوات الأهالي، ثم ظهرت الأضواء، فأمسك أبي مقبض مسدسه متأهباً للرد على أي عدوان، وأتى صوت واهن لرجل عجوز:

ـ أيها الغريب، اخرج لنتحدث. لا تخف منا. لن نؤذيك.

أسقط أبي راحته المتحفزة على جنبه، وخرج بحذر، وتبعته رغم دغدغات النوم، كان الأهالي منتشرين على الفناء، مستثارين واجمين،

وظهر الرجل الذي عارك أبي محتمياً خلف الرجال، وسرعان ما رفع ذراعه في الهواء بعصبية، قائلاً بحدة:

ـ ها هو، الفقيه الغريب. لقد رفض الخروج من المسجد.

نهره الرجل المسن، الذي لم تظهر ملامحه جيداً.

ـ دعني أسمع هذا الرجل، لقد أفقدتك سنوات الجهاد في أفغانستان عاداتنا وتقاليدنا.

وأضاف الشيخ مخاطباً أبي:

ـ دعني أصافحك أيها الغريب. لم أعد أقوى على حضور الفرائض في المسجد بسبب ألم مفاصلي.

اقترب أبي منه، وتناول كف الشيخ المرتعشة، وانحنى وقبلها باحترام قائلاً:

ـ أنا الفقيه جعفر.

ـ من أين أنت يا بني؟

ـ أنا من القفر الأعلى، أعيش في قرية يقطنها الفقهاء.

ـ أعرف قرية معظم أهلها من الفقهاء، وقد نزلت منذ زمن بعيد ضيفاً في دار رجل طيب يدعى محمد بن حسين.

ـ تعني الفقيه محمد بن حسين! إنه والدي.

ـ لا يهم اللقب يا بني، لقد كان رجلاً صالحاً، هذا ما أنا واثق منه. هل مازال حياً؟

ـ نعم، مازال يرتاد المسجد مستعيناً بالعصا.

ـ سبحان الله، أعرفك وأنت بعمر هذا الفتى، وأنا في عمرك الآن. وأذكر أن والدك كان يزجرك حين تقترب من مجلس الضيوف بفضول.

ـ مازال يزجر الجميع عن مجلسه، عدا هذا الفتى الأخرق. لا أعلم ما يعجبه فيه!

ضحك الرجل المسن، ونظر باتجاهي متفحصاً ملامحي وقال:

ـ إنه محظوظ بإيثار جده له، هيا بنا إلى منزلي القديم لنستكمل الحديث هناك.

جلبنا أغراضنا بفرح، وأخذنا حمارنا وتبعنا الشيخ المتعب الذي سار ببطء بمساعدة شاب من أحفاده، وكان داره قديماً دافئاً، تفوح من جوانبه حياة ريفية بدائية، والغرفة التي نزلنا فيها يتوسطها صحن نحاسي عريض يسمى المعشرة، يحوي المداعة والشمعدان وبعض الأقداح النحاسية، كانت الجدران مطلية بالجص القديم وتبرز منها مشاجب ونوافذ صغيرة وأرفف تحوي لوازم عديدة مما نراه في بيوت القرويين. وجلبت لنا القهوة، واحتسى أبي كوبه بلذة لا توصف، فهو معتاد أن يشربها في المساء والصباح، ثم أتى الطعام طرياً ساخناً من منازل أبناء الشيخ الثلاثة، فتة بالسمن والعسل، وشوربة ذرة، وكعك، فأكلنا حتى الشبع. ثم بدأ السمر والحديث، فارتكنت زاوية وشرعت

أجاهد لأبقى متيقظاً، كان الجو مُريحاً، وكبار الأهالي في القرية قد حضروا، وجعلوا يتحدثون عن السفر ومخاطره المحتملة، وسمعت أننا في قرية تدعى شيعان، وأن اسم الرجل المسن هو علي القحطاني، ثم غرقت في النوم.

وفي الصباح، تناولنا إفطارنا، وأثناء ذلك خاطب الشيخ أبي قائلاً:

ـ لو أستطيع أن أقنعك بالتخلي عن سفرك، أكون قد قدمت لأبيك بعض ما أسداه لي من معروف.

رد أبي باقتضاب:

ـ يكفي ما فعلت.

ـ هلا عدت إلى دارك يا بني؟ سيبكتني ضميري ما حييت إن حدث لكما مكروه.

ـ سامحني، لا أستطيع العودة. شيء ما يدفعني دفعاً للسفر. وقد تلقيت الإشارة كما أخبرتك، هل تفهم ما أعني؟

ـ نعم، ومع هذا أرى أن تدع الفتى هنا، أخشى أن تلدغه أفعى أو تنتزعه منك القرود، وأعدك أن أعيده إلى أمه.

ـ نحن مطلوبان معاً، ولا يجوز أن أسير من دونه. إنه أحب أبنائي، ليحرسه الله..

بعد أن سمعت ذلك انخفض حماسي، وتمنيت أن يفلح الرجل المسن في إقناع أبي بالعودة، أو حتى يرغمه على ذلك إرغاماً، بأن يكبله

بالقيود إن لزم الأمر، أو يحبسه في حجرة. لكن الرجل المسن سمح لنا بالخروج من داره بعد أن أصابه اليأس، وجاء معنا يقوده حفيده، وسرنا ببطء وسط حشد صغير من الأهالي، كان الفتيان يلعبون في باحة صغيرة متربة تحف بها الأشجار، البعض منهم يجلبون الماء في طاسات معدنية، وآخرون يصنعون دمى من الطين الأحمر، كانوا حفاة، مشمرين سراويلهم اتقاء البلل، منهمكين تماماً في عملهم. ولكن مرورنا أثار انتباههم، فتوقفوا وتطلعوا إلي بعيون مرحبة، وقدّمت نظراتهم لي دعوة جريئة للحضور والمشاركة، فهفت نفسي للانضمام والتعرف على تلك الزمرة من الأولاد. آخ، ما أروعهم! كرهت ساعتها أبي وقراره الأرعن وحمارنا الأصهب الذي يحملني.

كنت أود أن أعتذر لهم، وأشكرهم على لطفهم، وأخبرهم بأني لا أستطيع اللعب معهم، لأني مرغم على السفر بمعية أبي، ولا أدرك إلى أين يقودني. أردت أن أصرخ طالباً النجدة. أنا مختطف، من ينقذني ويعيدني إلى دار الشيخ القحطاني، أو إلى الفتيان الذين يصنعون الدمى الحمراء، أو إلى قريتي، لكن أهالي شيعان كانوا مدركين أن أبي يقودني إلى البرية الموحشة، ولا يبدون مكترثين. يا لهؤلاء الآباء المتوحشين الذين تسمح لهم التقاليد أن يقودوا فتيانهم إلى أي مكان، إلى بر أو بحر، واحة أو صحراء، مكان مسكون أو مقفر، لا يهم! لا ينبغي على المرء أن يعصي أمر أبيه. لكن الرجل المسن علي القحطاني بدا مكتئباً على الأقل، وقد فعل ما بوسعه، وعند مشارف القرية قدم آخر ما يملك من رأي:

ـ خذ سيارة ولدي شرف، لن يكلفك هذا شيئاً..

ـ كما تعلم، يجب أن نسير بالأقدام.

ـ أنا حِلٌ من قرارك، اذهب حيث شئت.

سرنا بعض الوقت، والغم يكاد يسقطني عن ظهر الحمار. وانتهينا إلى وادٍ أخضر على حافتي سائلة عريضة يجري فيها الماء، وتجنبنا عبور المواضع الوعرة من الوادي قدر ما نستطيع. وجدنا المجرى يسيل متدفقاً لامعاً، فمشينا على حافته متجنبين الخوض في الطمي، كانت أشجار الجوافة والمانجو والموز محملة بالثمار الصفراء الناضجة، والمزارعون منهمكون في قطفها وتكديسها وسط سلال بيضاء من الخزف، ونفحونا بعض الفاكهة، فغسلنا الثمرات بالماء الجاري، وأكلنا شيئا منها أثناء السير. راق لي ذلك المجرى، ونسيت أمر البرية، وصادفنا في طريقنا أحواض ماء يستحم فيها عشرات الأشخاص، وهنا شجعني أبي أن أخلع ملابسي واستحم. كانت المياه هناك كبريتية حارة تنبع من جوف الأرض، والناس يأتون للاستشفاء من أمراض الروماتيزم والأعصاب، شعرت للوهلة الأولى بلسع حارق في جلدي، ثم تخدر جسدي، وأحسست بالراحة، وأثناء الاستحمام أخبر أبي الأشخاص القريبين منه أنه من فئة الفقهاء، وفي طريقه ليقوم بمهمة مقدسة، كان يظن أن يجد منهم بعض الحفاوة والتقدير، لكنهم نظروا إلينا باحتقار، وانصرفوا إلى حوض آخر، ما أبغض أن ينفر الناس منك، ويدعوك وحيداً مشوهاً كالقيء! فخرجنا من الحوض، وأبي يلعن آبائهم، وأعلن أن أولئك الأوباش يمقتون الفقهاء لأنهم أكثر منهم حظوة وشرفاً، وبعد هنيهة من السير، عرجنا إلى ظل شجرة جوافة تقع على حافة مزرعة صغيرة، افترشنا الظل البارد فوق بقعة معشبة رطبة، وما لبث أبي أن قام على عجل، ونصب حجرين مربعين تاركاً بينهما

فراغاً، وطلب مني أن أغسل الإبريق وأملأه بالماء، ريثما يجلب شيئاً من الحطب، وغاب قليلاً، ثم عاد بحزمة من العيدان، ودسّها بين الحجرين، وأوقد ناراً، وذكرني أنه سيرتجل صنع مشروب كيفما اتفق، وعلي ألا أعول على قهوته، لأنها لن تكون لذيذة بالتأكيد كالتي نجدها في المنازل. فالرجال المحليون لا يدخلون بيوت النار، النساء فقط يصنعن الطعام للعائلة. ولكن في مثل هذا الظرف سوف يضطر أن يفعل ذلك تحت ضغط الحاجة.. وفار المشروب، واستعان بطرف شاله وانتزع الإبريق الساخن، ووضعه جانباً.

كانت العصافير تتحرك وتطلق مزيجاً من الأصوات وتتقافز على فروع الشجرة بابتهاج. وخرير الماء المتدفق يأتي خفيفاً من المجرى. صار الجو داكناً فجأة، بفعل احتجاب الشمس خلف سحب رمادية مبشرة. كان موسم الصيف قد آذن بالدخول، وهناك بياض داكن يغطي الأفق البعيد، فأشار أبي إلى هناك قائلاً بقلق:

ـ هيا بنا يا زيد، المطر قادم.

أخذنا أغراضنا وحمارنا، وسرنا مسرعين على حافة المجرى، وأبي يجيل عينيه كالصقر الصياد باحثاً عن مأوى، حتى عثرنا بعد لحظات على شجرة معمرة عملاقة قطرها ثلاثة أمتار، تقف وسط المجرى دون خوف، عززها المزارعون من الخلف بصخور كبيرة أقاموها كجدار متين، لإجبار الماء على الانحراف بعيداً عن مزارعهم، لاح على الشجرة عش كبير متناسق من عيدان جافة وكأنه عش طائر عملاق، وشرعت القطرات تسَّاقط على أكتافنا كبيرة وباردة، وقال أبي بتفاؤل مشيراً إلى أعلى:

ـ انظر، مزارع ماكر صنع هذا الشيء ليحرس محاصيل البن والموز المقابلة!

وعقل الحمار قرب الشجرة على فرع ضعيف متدلٍ، ثم رفعني حتى استقريت على فرع قوي، وناولني المخلاة ثم الإبريق الساخن، واستطعت بقليل من الجهد أن أصل بالأغراض إلى العش، في حين تبعني أبي مستعيناً بفجوات حفرها الحارس على الجذع الضخم، كان العش جميلا متينا له نافذة من الخلف تطل على الفراغ الخلاب، ولم يكن متسعا من الداخل، بل يكفي ليقيم شخص واحد براحة تامة، لكنه وثير مزود بفراش ودثار ومعطف عسكري ثقيل، وهناك بقايا بذلة عسكرية صفراء وطاقية خضراء، وتكهن أبي هوية صاحب المزرعة قائلاً:

ـ يبدو أن هذا النحر الخصب مملوك لقائد عسكري يعمل في الأمن. فالقادة أحياناً يستثمرون أموالهم في المزارع.

كان أبي يبدو واثقاً من أقواله وأفعاله، ولا يسهل التشكيك في صحتها، ولم أكن بعمر يؤهلني لمناقشته حول ذلك، لكني سألت:

ـ أين الحارس؟

ـ إنه بمكان ما قريب، ولن يأتي إلا في المساء كما أظن، على كل حال، لن نمكث هنا طويلاً. سنغادر بعد انقطاع المطر.

كان المطر ينهمر بشدة في الخارج، ولسقوطه صوت رهيب، ومع ذلك بقيت خائفاً من قدوم الحارس، تمنيت أن نغتصب العش، ونبيت

فيه للأبد، كان الارتفاع إلى مستوى العصافير يفتنني، فقلت بكل سذاجة:

ـ اطرد الحارس بعيداً كما فعلت بذلك الرجل في المسجد.

رد أبي بسخط:

ـ لا تكن سخيفاً، لم نأت إلى هنا للمبيت على رأس الشجرة! لقد لذنا إليها بفعل المطر.

وأكلنا بعض الكعك، متلذذين بدفء القهوة، فقد كان الطقس بارداً والرذاذ يتسلل إلينا من النافذة والباب المفتوحين، وهتف أبي:

ـ المطر غزير جداً.

كان هناك هدير قوي في الخارج، وتناهى إلى سمعنا صوت نهيق الحمار يأتي بضعف شديد، فنهض أبي وأطل من الباب إلى الأسفل، وسمعته يصرخ بفجيعة:

ـ الحمار أخذ السيل.. ويلاه.

أخطأ في التعبير بطبيعة الحال، فالسيل هو الذي أخذ الحمار وليس العكس، ثم قفز إلى فرع قريب متطلعاً في الماء الأغبر المترب، وادعى أنه رأى قوائم حيوانه المسكين تتخبط قبل أن تختفي، كانت المياه تقبل من أعلى المجرى زاخرة سريعة على هيئة كتل ضخمة شديدة الاغبرار، وجلبت معها أخشاباً وحيوانات نافقة وأشجارا اقتلعتها في طريقها، وشاهدت هيكل سيارة مكشوفة يتدحرج وسط عباب السيل، وزعم أبي أن هناك جثث أشخاص وحيوانات أليفة، وهذا بعث

الرعب في نفسي، كانت الأشياء في الخارج غير واضحة، وظل المطر ينسكب بغزارة، وعتم الجو وغمره رذاذ أبيض كثيف على شكل دوامات متحركة تشوش البصر، وبدا جلياً أن السيل قد حطم الحواجز حول الشجرة، واقتحم الحقول المجاورة، واجتث شجيرات الموز والبن، وأخذها بعيداً، لم نعد نرى في الحقول القريبة سوى بحر متموج من المياه الغبراء. وجعل أبي يتحدث عن الأضرار، ويقول إنها تقدر بالملايين، ولا ريب أن الحارس سيأتي بعد قليل غاضباً ليبلغ المالك بما حدث، وقد يهدم العش، ويأخذ فراشه ويؤوب إلى منزله. وحزنت بشدة، وفكرت في أن الشجرة العملاقة من دونه لا تساوي شيئاً، ولا أظنني سأسمح له باقتلاعه فيما لو أتى، ورغم ذلك غمرني خوف شديد على مصيري، وأخذت أودع نفسي، فالماء يحيط بنا من كل جانب، والمطر لم يتوقف. وشعرت بنفسي أميل وأتحرك فقلت بهلع:

ـ السيل سيأخذ الشجرة.

ـ أيها المسكين، لا تفزع، إنها هنا وسط المجرى منذ مئات السنين، دون أن تتزحزح.

كانت شجاعة أبي تخونه مع مرور الوقت، بدا القلق مرتسماً على ملامحه الكليلة، واعترف لي في النهاية أننا صرنا عالقين أعلى الشجرة، في حين مازال دفق السيول آتياً من أعالي المرتفعات البعيدة، ولن يكون بوسعنا النزول. وحين خف المطر في آخر النهار انقشع الغمام وصفي الجو، واستطعنا أن نرى النحور القريبة خاوية من الأشجار، باستثناء بعض الأشجار المعمرة البعيدة، وخُيل لأبي أن

شجرتنا غدت مائلة بشكل كبير، ولم يعد يمسكها سوى جذر ضخم أو أكثر من جذورها الضاربة في عمق الأرض، وأمسى مقرفصاً على فرع كبير يتطلع إلى الفراغ في حيرة، ممسكاً رأسه بين يديه نادبا حظنا السيئ، فجأة سمعنا جلبة المزارعين، وأصواتهم الحزينة، وأقبل صاحب العش راكضاً وهو يصرخ، ونظر إلى المزرعة الخالية بحسرة، ثم التفت إلى الشجرة ورآنا، فصاح مشيراً إلينا بتوتر وكأننا السبب فيما جرى للمزرعة، كان شاباً مقطباً شاحب الوجه يميل إلى البدانة، ولم نستطع أن نفهم ما يقوله رغم أنه يبعد عنا حوالي عشرة أمتار، وقف متجمداً محتاراً على حافة المجرى، ولم يجرؤ أن يتقدم خطوة واحدة، لأن التيار السريع سيأخذه بعيداً كقشة صغيرة، وبعث أبي إليه بضع إشارات موحياً بأننا عابري سبيل، شاء سوء حظنا أن نمر من هذا المكان، وليس في يدنا حيلة، وتقدم أبي متشجعا، ونزل عبر فجوات ساق الشجرة، حتى دس قدمه وسط تيار الماء العاتي ليقيس قوة جريانه، وكاد أن يفقد توازنه ويسقط، فصاح الشاب عليه بغضب، فارتد إلى الأعلى مترنحا يجر قدمه المصعوقة، حتى أخفاها وسط الدثار، ورأيت الشاب ينصرف مهتاجاً غاضباً كما جاء، ظننت أن رؤيته لنا على شجرته ضاعف من غضبه، واتضح لاحقاً أن مجازفة أبي ضاعفت من غضبه.

جاء المساء سريعاً، وليس لدينا سوى القليل من الماء، واضطر أبي أن يضع الإبريق الفارغ على أحد الفروع، وثبت في أعلاه بعض الأوراق على شكل قمع لاستقبال القطرات المتساقطة، أما الكعك وثمار الموز والمانجو، فمازال لدينا منها القليل ما، كان جزء من الفراش قد أصابه البلل دون أن نشعر، بفعل الرذاذ المتسرب عبر النافذة والباب، أضاء

أبي مصباحه اليدوي، وأطلق منه إشارات استغاثة وسط الظلام، لجذب انتباه الأهالي، ثم علقه بسقف العش، وأخذ يتحدث عن وسيلة نستطيع من خلالها النزول من الشجرة بسلام، وتمنى أن يملك الحارس بعض الضمير ليذيع خبرنا على الآخرين، ولا ريب أن الناس يملكون حيلاً قديمة لإنقاذ المحاصرين بالسيول، وأن هناك أشخاصا قبلنا حوصروا وسط مجاري الماء وتم انتشالهم، جلس أبي يردد مثل هذا الكلام، وجلب لي كثيراً من الغم، ولم يهدأ حتى تناول كعكة وثمرتي موز، ومن ثم أشعل غليونه ومضغ غصنين طويلين من القات لا أدري من أين حصل عليها، أظنه أخذها من أحد المزارعين دون أن أشعر، وهكذا استند على متكئ الحارس، وغطى قدميه بالدثار، وقال لي فلنعش هذا المساء بشكل طبيعي، وننسى أمر السيل، ولنتخيل أننا وسط غرفة وثيرة في دارنا الكبير، وأمرني أن أغلق باب العش والنافذة لنستمتع بالعزلة، فكدت أن أصرخ في وجهه محتجاً، لكني خشيت من العواقب، كان مصدر متعتي هو أن أطل على الليل والسيل، وأسمع صرير الحشرات الغريبة، ونعيب طيور المجرى الحزينة التي فقدت أشجارها في ذلك النهار الرهيب، لذا حدثته بتوسل عن رغبتي في الجلوس على فرع في الشجرة ريثما يمضغ أغصان القات، فأبدي رفضه التام وخشيته أن أسقط وألحق بالحمار، وأخذ يحدثني شاكيا متأثرا بمفعول القات، وأذكر أنه قال شاخصا إلى سقف العش:

ـ لقد فعلت حسب إشارة مولانا سراج الدين، أليس هذا عملاً صالحاً...؟

قاطعته قائلا بحنق:

ـ لا أدري.

صاح بانفعال مفاجئ:

ـ اسكت، أنا أشكو إلى إلهي وليس إليك، ولا أظنه يسمعني بفعل هدير هذا السيل اللعين.

تثاءبت مصدراً صوتاً يشبه عواء جرو، فلكزني صارخاً:

ـ تتثاءب وكأنك على صدر أمك! هيا بنا نطلب المساعدة، لا يجب أن نظل مختبئين.

وخرجنا للتو، وجلست على فرع ضخم كجذع شجرة كافور، وقعد أبي إلى جواري، وهناك صفعت وجهي تيارات باردة هادئة، فأعادت لي توازني المفقود. كان الليل مهيباً، وأشتات من النجوم تظهر بخجل من خلال الأوراق المثبتة على الأغصان، كان أمامنا أفقاً وحيداً مفتوحاً هو نقطة اتصالنا بالعالم، كانت السماء صافية مطرزة بالنجوم الذهبية، وفي هذه الأثناء أحترم أبي سكينة المكان، فلاذ بالصمت، ولمحنا المياه تتلألأ بشكل خفيف تحت أضواء الكواكب الخافتة، وبعد قليل سمعنا جلبة شيء حط على فرع بالأعلى، ولمعت عينان كبيرتان حادتان كنجمين فضيين وسط أوراق الشجرة وأغصانها المتشابكة، فتشبثت بساق أبي، فانفجر قائلا بسخط:

ـ إنها بومة، كن رجلاً يا زيد. كيف يكون حالك لو قابلت ضبعاً!

ـ أخشى من أي شيء مجهول.

وصاحت البومة، فقذفها بشيء كان في يده، وهو يشكو:

ـ ما أشأمها!

فابتعد الطائر الليلي، مصدراً جلبة خفيفة خافقا بجناحيه، فقلت بعد أن سكن الصوت:

ـ لعل بيته هنا.

صاح أبي بغضب:

ـ فليذهب إلى أي مقبرة أو دار مهجور.

وران الصمت هنيهة، ثم رأينا أضواء مصابيح قريبة، فاستقام أبي متطلعاً بشيء من الأمل، وسمعته يهتف بابتهاج:

ـ أخيراً جاءوا.

وتوقف الضوء على حافة المجرى. كان الهدير قد خف، وتسنى لنا أن نسمع أحدهم يضيء مصباحه ناحية الشجرة صارخاً:

ـ هيه، أيها الرجل..

رد أبي بصوت عارم كغريق رأى سفينة إنقاذ قادمة:

ـ نعم، يا أخي، نحن هنا عالقان..

ورفع مصباحه اليدوي وسدد الضوء إلي ليستدر عطفهم، كانوا بضع رجال متفاوتي الأعمار، وبأيديهم حبال واثنين منهم يحملان سُلّماً خشبياً، وجعلوا يخططون لعملية إنقاذنا، لكن التوقيت كان سيئاً،

والظلام يعيق الرؤية والحركة، والسُلّم كان قصيراً بشكل واضح، فقال أحدهم بصوت عالٍ:

ـ أيها الرجل، هل بوسعك الانتظار إلى الصباح؟

ـ كما ترى، أين بوسعي أن أذهب!.

قالها أبي بضيق، وجعل يقيس المسافة، ويجري بعض الحسابات المجهولة، محدقاً حوله ومصوباً ضوء المصباح إلى هنا وهناك، ورآني فجأة جالساً بصمت أتمايل على الفرع، فأقبل ناحيتي، وجذبني إلى الداخل، وهو يقول بنبرات حادة:

ـ إياك أن تنعس على الشجرة، لقد حذرتك من قبل.

فتحت عيني قليلاً، ثم ثقل جفناي واستلقيت دون ترتيب وغصت في سبات تام، وفي الصباح أفقت، وسمعت جلبة الرجال في الخارج، كان الضياء يملأ المكان، والشمس مازالت مختبئة خلف غيوم وسحب بيضاء، وراق لي الظهور في جو صافٍ ساكن مناسبٍ للعب والجري، كنا في القرية نخرج إلى الباحات بعد المطر، فنسير حفاة مشمري السيقان، ولا أكترث بانزعاج أمي وسخطها حين ترى ملابسي مبللة ملطخة بالطين، فهي لا تخشى علي من نزلة برد أو تلوث، وإنما يضايقها أن تظل تغسل ملابسي طوال فصل الصيف، تمنيت أن أعود إلى منزلنا لأعيش تلك اللحظات، وهممت أن أنادي أبي لأطلب منه أن يحقق أمنيتي، ولكني رأيته معلقاً على فرع عالٍ كالقرد، وسمعته يفاوض الرجال ويتأهب لالتقاط الحبال، بدت عيناه حمراوين، وصوته حاد النبرات يشي بنفاد صبره رغم محاولته أن يكون لطيفاً ممتناً.

ـ اقذف طرف الحبل إلى هنا. افعل هذا وحسب.

وسمعت أحدهم يصيح بارتياب:

ـ ليس بوسعكما النزول بواسطة حبل رقيق كهذا!

ـ أرجوك، اقذف حبلين بدلاً عن واحد وسأريك كيف أفعل.

قذفوا نحوه حبلين أخضرين، فأوثق طرف أحدهما إلى فرع سميك وقذف طرفه الآخر إلى الرجال، وطلب منهم أن يتشبثوا بكل قواهم، ثم حملني على ظهره ولف الحبل الآخر حول جسدينا وعقد طرفيه إلى الحبل المشدود، وأخذ أغراضنا بيده، وارتمى في الفراغ متجاهلاً صراخ الرجال الذين بدوا مرتابين من جدوى خطته، كان سقوطنا يثير اهتزازاً شديداً في الشجرة، وأخذ الحبل المشدود يتراخى حتى كدنا نهوي في الماء، فأطلق أبي صيحة رهيبة:

ـ شدوا الحبل بقوة.

ـ أتظن هذا...

لم يتموا العبارة، وتشبثوا بالحبل وهم يعضعضون شفاههم بألم، وكادوا ينجرفوا إلى تيارات المجرى، ووصلنا أخيراً إليهم، فرمونا جانباً بانفعال، ومكثوا هنيهة لاهثين، ينظرون إلى أكفهم المحمرة، ويحاولون تحريك سواعدهم المشلولة، كانوا ثلاثة رجال فقط، بينما تعذر على الآخرين مساعدتهم بسبب قِصَر الحبل. وتفحص أبي متأسفاً أيدي الرجال الثلاثة، لاحت عليها جروح وشقوق حمراء دامية، لكنهم بدوا فرحين بانتصارهم على قوى الطبيعة، وساروا فخورين باتجاه قريتهم،

ونحن خلفهم نمشي بخفة، وعرَّفنا الحارس بنفسه، وسمعته يخاطب أبي بحدة:

ـ هل أنت مجنون لتلجأ إلى شجرة تقف على مجرى السيل!

ـ لست غبياً كما تظن، لكني من سكان القمم وليس لي دراية بأحوال السيول.

تجاهل الحارس نزق أبي وقال باكتئاب:

ـ هذا أضخم سيل رأيناه، وسيظل متدفقاً طوال الصيف. انظرا إلى الشجرة المعمرة كيف تبدو! أنتما محظوظان على كل حال.

التفتنا ناحية الشجرة، كانت تظهر بانحناء خفيف وسط الماء الأغبر، وهز أبي رأسه مؤيداً، جعلتنا مشاعر الامتنان نسير خلفهم دون اعتراض، ونوافق على كل ما يقولون، بدوا مبهورين بما فعلوا، وصاروا يحيطون بنا بحماس وكأنهم يودون الاحتفاظ بنا داخل أقفاص أو عرضنا على أقاربهم للفرجة، كان أبي يطمع بالحصول على قليل من القهوة، قبل أن نواصل رحلتنا. بينما كنت أفكر باللعب في ذلك الجو البهيج. لم نجد غير منزلين صغيرين غائصين وسط دغل صغير من الأشجار الريفية المألوفة، واستقبلتنا شرذمة بائسة من الأطفال، ونساء خجولات كن يتطلعن إلينا بفضول من وراء صف من جذوع الشجر الباسق، كانت هناك بضع مواشٍ أليفة ودجاج محلي وكلب شرع يئن بغضب مبتعداً عن طريقنا. وجثم أبي تحت شجرة كافور تطل على بستان بُن صغير رافضاً دعوتهم بالدخول متذرعاً بالعجلة، وأتت القهوة وأقراص من الفطير واللبن، فانبرى يشرب قهوته بشفتين

جافتين مطلقاً صوتاً فظيعاً، وأكل الرجال فطورهم دون أن يأبهوا لسلوكه، كانوا مشغولين بالحديث عن مزارعهم التي أخذها السيل. فأكلت بسرعة ثم اقتربت من الفتيان الحفاة متطلعاً إلى التعارف واللعب، وأخذت مقلاعاً مطاطياً مرمياً على الأرض، وأشرت إليه بحذر محاولاً خلق سبباً للحوار، فانقض عليّ صبي صغير، ونزعه من كفي مفصحاً بأنه يخصه، لكن فتى آخر يضاهيني في الحجم طلب مني أن أتبعه، وما لبث أن أراني مقلاعاً آخر، وجملة من الألعاب اليدوية والدمى الطينية الخضراء، ثم قادني إلى بركة من مياه المطر الغبراء المتربة تقع خلف المنزل، فشمرنا عن سيقاننا، وجعلنا نثير الصخب، ونركل الماء في جميع الاتجاهات، وبعد قليل سمعت صوت أبي يناديني، ولكني تجاهلت نداءه، فأتى بقوامه الفارع المشدود، وأمامه حمار جديد تربعت أغراضنا على ظهره، واكتسى وجهه بحمرة الغضب حين رآني وسط البركة، لكنه على غير عادته لم يصرخ، بل تحلى بالحكمة قرب الرجال الكرماء، واكتفى بالتحذير من إصابتي بالرشح والزكام، وأفصح أنه لا يستطيع أن يجففني أو يغسل ملابسي أو يمرضني كما تفعل أمي، وعندما غبنا عن محيط المنزل فرك أذني بحصاة صغيرة، ما جعلني أصرخ بألم، ثم أمسكني من كتفي وهزني بقبضته القوية، قائلاً بنزق:

ـ ألا تُقدر الجهد الذي بذلته على الشجرة لأحافظ على حياتك! لكنك تميل إلى اللعب والمرح، على كُلٍ، لا شأن لي بما سيحل بك أيها النذل. وإن تمرض سأرميك جانباً وأرحل. لن أدعك تعيقني عن أداء مهمتي المقدسة.

ثم سرنا مثقلين بالأفكار، بدا كل واحدٍ منا غائباً في عالمه، كانت الطريق زلقاً والحشائش الطويلة تخفي معالمه، لكن ذلك الحمار الصغير، تفادى معظم الفجوات والحفر، وكأنما اعتاد على السير في تلكم الطرق. كان أبي قد فاز بالحمار كهدية من أولئك الرجال، بعد أن سمعوا بما حل بحمارنا السابق، وأكدوا بحماس أن جذورهم العائلية تنتمي إلى فئة الفقهاء القحطانيين، لم يسمع أبي عن هذه الفئة من قبل، وفي ظروف أخرى سينفي وجودها وقد يداهمه الغضب أيضاً، لكنه هنا حبذ مجاراتهم تقديراً لما بذلوه من معروف، وعندما وهبوه الحمار أعلن أن الكرم من مناقب الفقهاء، وتخيلت حاله فيما لو وهبوه حصاناً أو بغلاً، في هذه الحال، لن يتردد عن الإدعاء بأنهم من سلالة الملك أسعد الكامل.

حدثني عما أبدوه من تبجح وزهو أمامه، لكنه يدرك أن الفقهاء أكثر الفئات شعبية على الإطلاق. لذا يحبون العيش في قرى كبيرة، ولا يمكن لهم أن يقطنوا في منزلين داخل دغل معزول.

وتتابعت الطرق، وصار الحمار يمشي حائراً، وسط منعطفات وشعاب غريبة. أصبحت البيئة رعوية ومسطحة، ولاحت قطعان من الماعز منتشرة على الشعاب الصغيرة المكسوة بالشجيرات الغريبة والحشائش، ومازالت القرى تتوالى والفلاحون في حقولهم، والرعاة يدندنون بأغانيهم المحلية، وغربت الشمس ونحن قرب قرية كئيبة، كانت الأرض هناك جافة جرداء وكأن الصيف لم يصل إليها بعد. واهتدينا إلى المسجد بواسطة مئذنته العالية، فعرج أبي صوبه طمعاً بأخذ قسط من الراحة، أما الصلاة، فبوسعه أن يؤديها على سطح صخرة ملساء، وأفصح لي بثقة فقيه عارف بشئون الدين أن صلاة

المسافرين قصيرة، ركعتان بوسعهم أن يقيموها في أي موضع كان، وحين دخلنا الفناء لم نصادف أحداً من المصلين، كان باب المسجد موصداً بأقفال وسلاسل حديدية ثقيلة، وانتاب أبي الذهول، وصار يتلفت حوله كالمذعور، وكأنه لا يصدق ما يراه، ثم طفق يدور حول الجدران باحثاً عن باب آخر، وفي الأخير أفصح بيأس أن هناك مسجداً آخر في القرية دون شك، لكنه حبذ أن يؤدي الصلاة في ميقاتها، فتوضأ بقليل من التراب نثره على أطرافه بشكل مضحك، وأجبرني أن أفعل مثله، وصلينا ركعتين سريعتين، ثم خرجنا إلى الشارع.. كانت القرية هادئة متباعدة المنازل، ولم نر فيها رجلاً أو امرأة أو طفلاً، بدت كئيبة مهجورة، ثم رأينا بضعة رجال ضاربين أقنعة على وجوههم يتسللون من منزل صغير، كانوا يسيرون بسرعة، ممسكين أسلحة الكلاشنكوف بأيديهم في وضعية قتالية، ورغم ذلك وجد أبي في نفسه شجاعة كافية لينناديهم: "هيه، أنتم، لحظة لو سمحتم".

لم يلتفتوا إليه، وكأنهم مصابون بالصمم، حتى اختفوا وسط الظلام، وفجأة انبثقت أمامنا قطة سوداء نحيلة، نفشت جسدها أمامنا مطلقة مواء صاخباً، ثم انسلت مبتعدة سالكة درباً قصيراً، فانحرف الحمار فجأة وراح يعدو خلفها، ولم أستطع أن أجبره على التوقف، لأني كنت راكباً على ظهره، وتبعه أبي صارخاً مسلطاً على جسده نور المصباح اليدوي خشية أن يفقدنا. واقتربنا من ذلك المنزل الصغير الذي خرج منه المسلحون، فأبطأ الحيوان وأتى أبي مهرولاً وهو يلهث ويشتم، فأمسك مقود الحمار بغضب، كان ضوء المصباح مسلط على واجهة المنزل، فتراجعنا بذعر. بدا الجدار الأمامي ملطخاً بطلاء أحمر يشبه الدماء، وعلى حوافه تتدلى جماجم حيوانات وعظام كثيرة، بدا الباب

الخشبي منفرجاً قليلاً، فاضطرب حال أبي بوضوح، وضرب الحمار بعصاه وأخذ يعاتبه بغضب:

ـ ماذا جرى لعقلك أيها الحمار اللعين حتى تطارد تلك القطة الشيطانية، وتقودنا إلى هذا المكان المهجور؟

فجأة سمعنا وقع أقدام خلف المدخل، فأضاف أبي بشيء من القلق:

ـ ليس مهجوراً كما كنت أظن، ولعل صاحبه يراقبنا الآن، ومن العار أن نمضي دون أن نخبره عما أجبرنا على انتهاك حرمة داره.

واقتربنا بحذر من الباب، وجعل أبي يحدق من الفتحة الصغيرة، وسألني بعجب:

ـ هل دخلت القطة هذا المنزل؟

أجبت موافقاً بارتياب، فرفع نظره إلى الجماجم المكشرة أسنانها، وقال بنبرات متذبذبة:

ـ لم أر شيئاً كهذا من قبل. أخشى أن يكون هذا المنزل مسكون.

سمعنا صوتاً يصدر واهناً من المنزل:

ـ أنتما، ادخلا.

سألني أبي بهلع:

ـ هل سمعت أحداً يدعونا للدخول أم يخال لي؟

ـ نعم.. سمعت.

وجاء الصوت أقوى من ذي قبل:

ـ لا تخافا شيئاً، ادخلا، أول باب على اليمين.

وقف أبي على الباب متردداً ً، ثم صاح بارتباك:

ـ عفواً يا أخي، لقد هرب حماري خلف قطة سوداء دخلت هذا المنزل.

ـ أعرف ذلك، دع حمارك في الخارج، وادخل وفتاك، ولن يصيبكما أي مكروه.

ـ عجباً.. المكان مظلم هنا، هل ترانا؟

ـ ادخلا، سأدع السوداء تشعل الفانوس..

ودخلنا برهبة مجلساً عريضاً رائحته منفرة، وكشف ضوء مصباحنا اليدوي امرأة سوداء منتصبة قرب رف النافذة، وتضوعنا رائحة الكيروسين، ورأيناها تصب الزيت إلى جوف مصباح كاز كبير دون أن تعيرنا اهتماماً، وسرعان ما شع لهب برتقالي من عود ثقاب مشتعل، ثم انتشر ضوء أصفر ساطع. بدت المرأة قصيرة قاسية الملامح، وسرعان ما انسحبت دون أن تنظر إلينا، وفي صدر المجلس لاح رجل كهل، يكسو وجهه النمش، يلبس ثياباً عتيقة وعمامة غليظة، يلعب بحبات سبحة في يده، أمامه مبخرة محلية وموقد وسلة من القش مليئة بالقواقع والخرز والأصداف البحرية وقرون وعول معقوفة وحوافر أبقار. وعلى يمينه خزانة مكتظة بعلب زجاجية صغيرة وكبيرة تحوي سوائل وعقاقير متنوعة، ومدون عرض كل علبة اسم المادة بخط ركيك.

كانت الأرضية عارية قذرة تفوح منها رائحة عتيقة مقززة، وارتسم الذهول في وجه أبي، حين لاحظ عمى الكهل. كانت عيناه مفتوحتين متوقفتين عن الحركة، ولم يكن صعباً أن يدرك أنه أعمى، فتنحنح، ثم قال بصوت مرتعش:

ـ لا أريد أن أتطفل عليك أيها الشيخ أو أزعجك، كنت أبحث عن المسجد في القرية وفوجئت بأنه موصد، ثم قادتني الأقدار إليك بواسطة قطة سوداء، وهذا غريب جداً.

ـ تبدو خائفاً، لا ريب أن سمعتي سيئة، الناس يزعمون أني أقترف أفعالاً مشينة، أليس كذلك؟

ـ إن صدق حدسي فأنت الشيخ العجيب، نعم، يشاع أنك تحبس المطر عن الأهالي، وتصيبهم بأسحارك.

ـ هذا ما يقال، ولكن كما ترى، فإن قطتي السوداء ترشد الغرباء إلى هنا ليروا بأنفسهم ما يجري، إنها قطة ذكية تفعل ما آمرها به.

بدا أبي غير مقتنع بقصة القطة، فسأل الكهل بحيرة:

ـ كيف تدرك أننا اثنان؟

ـ أخبرتني المرأة بذلك، لقد رأتكما قادمين خلف القطة. إنها تراقب الطريق على الدوام.

ـ يبقى هناك أمر المسجد المقفل، ألديك تفسير معقول لهذا الأمر؟

ـ عجباً، ألم يسبق لك أن رأيت مسجداً مغلقاً؟ ماذا بوسعك أن تفعل عندما ينشب العراك بين المؤمنين ؟

ـ هل تسخر مني أيها الشيخ؟

ـ كيف لأعمى أن يسخر! ألم تفهم ما أقصد؟ لقد اقتتلوا قرب المحراب وسالت الدماء على السجاجيد. فاعتقلتهم وأغلقت المسجد، ورفعت هذه الجماجم لأثير خوفهم من الموت.

ـ وأي سبب يدعوهم للقتال في المسجد؟ لا أصدق هذا!

ـ ببساطة. هناك لفيف من الفقهاء الأوغاد ورثوا إدارة المسجد، ثم أتت جماعة تسمى أهل الدعوة، فطالبت بهذا الشرف، ثم اقتتلوا ومات عدد من المصلين.

تجهم وجه أبي وصاح بثورة:

ـ لكن الفقهاء أصحاب حق قديم، إنهم الوعَّاظ والأئمة والمؤذنون، هذا معروف منذ الأزل.

ـ هذا صحيح، ولا يهم الآن من هو الأجدر، لقد أتى الأهالي، وطلبوا مني حلاً، ولم أجد حلاً آخر غير إغلاق المسجد، وكما ترى. لم يقع أي حادث.

ـ لا يجوز لمشعوذ أن يغلق المسجد، ويعاقب أولئك الرجال المؤمنين! هذا استخفاف شامل.

ـ كما أخبرتك، الناس يضخمون الأشياء الصغيرة، فأنا أملك بعض القدرات والحيل، وأحكم الناس هنا، لأنهم لا يعرفون كيف يديروا شئون حياتهم، إنهم العميان وليس أنا.

سكت أبي محتاراً، بدا جلياً أنه لا يريد أن يستثير غضب هذا الكهل الأعمى، فقال باهتمام:

ـ أليس حرياً بك أن توضح لهم ما ينبغي أن يفعلوا؟ فلا شك أن سمعتك نتنة كالجيفة.

ـ اسمع يا بني، مثلك في هذا الزمن سيقاد إلى حتفه دون أن يشعر، كل الناس هنا يحبون الشيخ العجيب أو يخشونه، ويمكنني أن أجمعهم بواسطة هذه المرأة السوداء متى أريد.

ـ ولكنك غشوم دون شك، وليس من الحكمة أن تغلق بيت الله.

نفخ الشيخ بنفاد صبر وقال:

ـ عشرة قتلى سقطوا، إنهم مجانين، يغضبون لأتفه الأسباب. لذا سجنت كبارهم.

رد أبي قائلاً بإحباط:

ـ افعل ما شئت، لا شأن لي.. إنها قريتك على كل حال.

ـ أنت الآن رجل صالح. حدثني عن سبب مرورك من هنا.

وشرع أبي يحدثه عن رحلتنا، فتملكني الضجر، وسددت أذني حتى لا أسمع شيئاً، ثم لكزت أبي بيدي، فضرب كفي، وهمس لي بحدة:

ـ لا تربكني يا زيد. ماذا تريد؟

ـ أنا جائع. قلت.

سمعنا الشيخ يقول مخاطباً هرته:

ـ اخبري السوداء أن تجلب العشاء.

وخرجت القطة رافعة ذيلها، مطلقة المواء، وهتف أبي بارتباك:

ـ وكيف بوسع قطتك أن تخبر السوداء؟

ـ لا تهتم، أرجوك أن تكمل قصتك الممتعة، أريد أن أعرف كيف تمكنت من الهبوط عن الشجرة بسلام.

فقمت مستغلاً انهماكهما في الحديث وخرجت بخفة من المجلس، كان الدهليز مظلماً، وضوءٌ طفيفٌ يلوح في آخره، وسمعت صوت أنين وشيء يشبه احتكاك معدن من الحديد، فتسللت ماشياً ببطء، مستنداً على الجدار. كانت هناك غرفتين مظلمتين، لكني لم أجرؤ على دخولهما، بل اقتربت من باب الغرفة الخافتة الضوء، واختلست النظر، ولمحت فيها بضعة رجال ذي لحى مشعثة غزيرة الشعر، رؤوسهم وصدورهم عارية، وأقدامهم مقيدة بأغلال ثقيلة، وكانوا منبطحين على فُرُش رقيقة يطلقون الأنين. بدت نظراتهم بليدة وخاوية من أي تعبير، ولا يبدو أنهم يعوا أي شيء حولهم، رأيت تلك المرأة التي تدعى السوداء تسقيهم شيئاً، وظهرها ناحيتي، بينما كانت القطة تتمسح بساقيها وتغرز مخالبها في مشط قدمها وتطلق المواء، وسمعتها تقول بصوت أجش:

ـ سآتي حالاً، أمهليني قليلاً..

ثم استدارت فجأة، ورأتني، فاضطربت وفغرت فاها وحركت لسانها وهجمت علي كالوحش، فخفت بشدة وهربت إلى المجلس راكضاً، فأثار هذا فزع أبي والشيخ نفسه، وقال أبي بعصبية:

ـ ماذا حدث لك أيها اللعين؟

قلت بصوت مختنق:

ـ السوداء هجمت علي مكشرة أنيابها.

ضحك الشيخ بصوت عالٍ وقال:

ـ لا شك أن الفتى اقترب من غرفة السجناء، عما قريب سأبعث بهم إلى مركز المحافظة. أولئك الرجال أطلقوا النار في المسجد، وحتى اللحظة لم يحضر أي شرطي إلى القرية لاستلامهم! ماذا جرى لهذه الدولة. هل ماتت؟

رد أبي بتهكم:

ـ الدولة نائمة ولا تظهر إلا عند بروز جبهة مسلحة تهدد سلطتها.

ـ لعلك تقصد الجبهة الوطنية القومية، لقد كانت طفرة مؤقتة يا بني. كان المحاربون في صفوفها يقذفون الرعب في نفوس وجهاء القبائل، وقد دخلوا قريتنا ذات مساء، وهاجموا منزل العجيب أو الساحر الرجعي كما كان يحلو لهم تسميتي.

وضحك الكهل، وروى ما حدث حين داهم منزله رجال الجبهة، كان في السبعين من عمره آنذاك، ولم ينطفئ نور عينيه بعد. اقتحم منزله ذات يوم عشرة مسلحون، وفتشوا الغرف بحثاً عن لا شيء، وتمادوا وبعثروا كتبه وأدويته، وفي النهاية اقتادوه بحذر إلى خارج القرية. لقد سمعوا من الأهالي أشياء كثيرة مبالغ فيها عن أسحاره ومكره، والشائعات هنا لها قوة السحر على الناس سواء كانوا تقدميين أو رجعيين، لذا كانوا يبدون خائفين منه رغم عدم إيمانهم بالسحر والخوارق، حتى أنهم وضعوا على وجوههم أقنعة، وما لبثوا أن عصبوا عينيه، وتقدم أحدهم منه، وشحن مسدسه، ثم ضغط على الزناد، لكن الرصاصة علقت بالداخل، وهنا نظروا إلى بعضهم البعض، وقال قائدهم باستهتار:

ـ يا رفيق محمد، لا تدع الساحر الرجعي يخيفك. خذ مسدسي وصُبَّ النار على رأسه.

أخذ الرفيق مسدس القائد، وشحنه بأصابع مرتعشة فعلق التراس، وهنا أصاب الرجال الرعب، وصاح أحدهم بثقة:

ـ خذوا مسدسي، لأنه لا يعلق، وقد جرَّبه أخي هذا الصباح، وأطلق النار في العُرس دون مشاكل.

وشحن الشاب مسدسه بنفسه وقدمه للرفيق محمد، فصوبه باتجاه الرأس، وأطلق النار، وحينئذٍ لم يشعر بأي ألم. أحس بسائل ينبثق من رأسه، فخرّ على الأرض منتظراً نهايته. وسمع الرفيق صاحب المسدس يهتف بانتصار:

ـ أخيراً، طار الدم من رأس العجيب.

وضحكوا، وانصرفوا، وظن أن الموت سيباغته في أقرب لحظة، وظل هكذا في انتظار أليم، ثم أحس بالحياة متشبثة في جسده، فحرك أصابعه المشلولة مرات عديدة، ثم استجمع قواه ونهض، ومد راحته إلى رأسه، متحسساً آثار الرصاصة، لكنه لم يعثر على أي جرح. رأى أطراف أصابعه مغطاة بسائل أحمر يشبه الدم، وعاد إلى منزله عند حلول الظلام، وغسل رأسه، فساح السائل الأحمر على الأرض، واندهش بشدة لنجاته، لقد كان محظوظاً للغاية، إذ نجا من الموت بمصادفة غريبة، ثم شرع يتسلل إلى روحه إيمان خفي بأنه فعلاً يملك قوى خفية في جسده، لم يكن يومئذٍ يعرف شيئاً عن رصاص "الفشنك" الزائف، وظن نفسه ساحراً لا يضارع، وسرعان ما انتشر الخبر عن موته وانبعاثه من جديد، وسرى الرعب في نفوس أفراد الجبهة، ولم يجرؤوا على مهاجمته ثانية، كما ارتعب منه الأهالي، وصاروا لا يخالفون له أمراً، وتفشى صيته في كل الأرجاء، وصار كل شخص يأتي إليه وهو يثق بقضاء حاجته، فالمريض مهما كان حاله سيئا يشفى بعد زيارته بفعل ثقته بالشفاء، واستطاع أن يحقق مكاسب وانجازات غريبة كالكشف عن المسروقات، فالسارق حين يدرك أن أصحاب المفقودات ساروا إلى العجيب، سرعان ما يعيد المسروقات إلى شخص ما، أو إلى موضع قريب من مكان السرقة، وكان القليل من البحث والتحري كافيا للعثور على مكانها، وأدى هذا إلى انخفاض نسبة السرقة في مديرية القفر، وعند التحقيق مع اللصوص الذين تم القبض عليهم، أفصحوا أنهم كانوا يخشون من العجيب أكثر من خشيتهم من رجال الشرطة. وصار جميع رجال الدولة في المديرية

يخشونه، ويبعثون إليه الهدايا والمال خفية. وسمع أن المحافظين المتعاقبين يتحدثون عن خوارقه في مجالسهم الخاصة، ولا أحد منهم يجرؤ على زيارته خوفاً منه! حتى ملاك الموت لم يأت إليه. أصبح شيخاً طاعناً وأعمى، تعذبه شيخوخته وترهقه مشاكل الناس الأغبياء وشائعاتهم. لم يعد يفرح في استغفالهم وخداعهم. وقد بعث رسائله إلى شرطة مدير المديرية ثم إلى المحافظ، ولم يأتِ الجنود بعد ليأخذوا هؤلاء الرجال إلى المحكمة! أليس من حقه أن يموت مرتاح البال أم يود الناس أن تطارده اللعنات إلى الأبد؟ وما لبث أن طلب منّا ألا نحمل ضده أي ضغينة، وأن نخبر الناس في طريقنا أنه لا يملك شيئاً خارقاً، وأن بوسع بعوضة أن تقتله.. وعليهم أن يأتوا إليه ليروا أنه رجل عجوز لا يؤذي أحداً...

قاطعه أبي صارخاً بيقين:

ـ لا أصدق ذلك، صيتك منتشر في كل مكان! ولن يصدقني أحد حين أخبرهم أنك لا تملك شيئاً من القدرات.

ـ كما ترى، أنت لست مختلفاً عن الأغبياء الذين يؤمنون بأي شيء يردده الدجالون، لذا سوف تندثرون ببساطة شديدة، أتمنى أن يكون ابنك مختلفاً عنك.

ـ أرجوك أن تدعنا نكمل مهمتنا بسلام.

ـ بوسعك البقاء في داري حتى الصباح إن شئت.

كان أبي خائفاً يتفصد عرقاً، ولم يجرؤ أن يغادر رغم خوفه من الشيخ العجيب، بعد قليل جلب أهل القرية العشاء، وأتوا لتقديم فرض الولاء

المألوف، وهو مسامرة الشيخ العجيب وتسليته. واستقبلتهم السوداء عند المدخل، وجعلت تنزع أسلحتهم بجفاء، ثم سمحت لهم بالدخول، فجلسوا منكمشين خاضعين يتكلمون بأدب، تعرفت على فقهاء القرية بواسطة عمائمهم البيضاء المستديرة وملابسهم الفضفاضة، وإلى خصومهم المنتمين لجماعة الدعوة المميزين باللحى والسراويل البيضاء وسواك الأراك الذي يفركون به أسنانهم، ولاح عدد آخر من الفلاحين البسطاء منزوين برهبة، بدوا جميعاً مذعنين، لكن الخصوم بدوا متوترين ولا أحد منهم ينظر إلى الآخر، فأكلنا الطعام، وسمعنا الطرفين يطالبون بحقوق إدارة المسجد، وإطلاق أسراهم، وتكلم الفلاحون بأنهم يودون العيش بسلام، ولا يريدون أن تفسد حياتهم بسبب هاتين الفئتين المتناحرتين، وطلبوا حلاً حاسماً، وانفجر الشيخ قائلاً بغضب:

ـ أنتم للأسف الشديد تظنون أنني شرير، ومع ذلك تطلبون حلاً. أنا رجل أعمى كما ترون، ولا أحابي أحداً، وهذا يوم مناسب لأطلق حكمي الأخير، لأن لدينا شاهدان، وأعول على الفتى أن يفهم ما أعنيه، ومن ثم يخبر أترابه أني رجل منصف ولست شريراً.

ونظر أبي ناحيتي بقسوة، وكأنه يحذرني أن أفهم أو أتفوه بشيء، وعاد الشيخ وأطلق قراره النهائي قائلاً برباطة جأش يحسد عليها:

ـ سأسلم السجناء بنفسي للمحكمة لينالوا عقابهم، وسأصادر السلاح من الفئتين وامنعهم من اقتنائه، وهذا هو الأهم، أما إدارة المسجد فأسلمها للأهالي الذين لا ينتمون لأي طائفة دينية، ومن شاء أن يبني له مسجداً فليفعل بعد أن يأخذ تصريحاً مني وسيظل تحت رقابتي. انتهى.

ورفع يده في الهواء، فأتت السوداء وسلمت مفتاح المسجد لفلاح كبير في السن، فانتفخت أوداج الخصوم جميعهم، وحاولوا أن يثيروا الفوضى، لكن المرأة سددت نحوهم نظرة صارمة جمدت الدماء في عروقهم، وأشارت لهم بالخروج، فانصرفوا حانقين. وساد الصمت والهدوء، وأمسك الشيخ العجيب براحة يدي ثم مسح على رأسي قائلاً بنبرات مخيفة: "أتمنى أن تفهم يا بني".

بدا أبي حانقاً وخائفاً في آن، وأخبره عن رغبتنا بالنوم، فأمر قطته أن تخبر السوداء أن تجلب الفراش، وبعد لحظات كان فراشنا مستقراً في المجلس، فاستلقينا عليه، وجلست أفكر بما رأيت هنا، بالرجل الكهل، والأهالي الخائفين من الشيخ، وبما يريد مني أن أفهم. وسمعت أنفاس الشيخ تتصاعد باطمئنان غريب، ما ينم عن استغراقه في النوم. كانت القطة متكورة قرب جسده وكأنها تحرسه، وأطفأت المرأة السوداء المصباح، ورأيت عينا القطة مفتوحتين لامعتين في العتمة، فانتابني خوف شديد، فأغمضت عيني مكرهاً، ولا أعرف كيف استطعت النوم!

عند الفجر حثني أبي على الاستيقاظ، وطلب مني أن أتبعه بهدوء، فخرجنا من منزل الكهل متسللين، وأخذنا الحمار، وسرنا قرب المسجد. كان مفتوحاً على مصراعيه، وتردد أبي بعض الوقت، ثم قرر أن يؤدي الصلاة في ميقاتها، فتوضأ بالبركة. وفوجئ أن عدداً قليلاً من الفلاحين والعجزة يؤدون صلاتهم في الداخل بهدوء وسكينة. ولا أثر للفقهاء وخصومهم. وهذا أفقد أبي رشده، وخرجنا وهو يشتم الشيخ العجيب، ويقول أن هذا الساحر اللعين جعل الناس ينفرون من المسجد، وأن عدد المصلين لا يتجاوز عشرين نفراً. وفكرت أنه لا شأن لنا بالأمر، لكني لم أجرؤ على قول ذلك.

الفصل الرابع

مشينا ما شاء الله أن نمشي، وكلما توغلنا في السير ازداد جفاف الطبيعة وساءت الأجواء، كنا نهبط بشكل جلي، ونمر بقيعان منبسطة حارة شحيحة المساكن والماء، ولا أثر فيها للجبال والمدرجات الزراعية التي نراها في القفر الأعلى، بل هضاب صغيرة قاحلة مغطاة بشجر شوكي يصمد في البيئات المجدبة. وفي بقعة مستوية على رأس تل صغير كان هناك سوق أسبوعي، وكان من الغريب أن ينبثق أولئك الناس دون أن نرى قرى أو مساكن، أدركت لاحقاً أنهم يقطنون قرى صغيرة لا تكاد ترى، وهي عبارة عن مجمع متجانس على شكل ملاجئ بسيطة مرتجلة من القش والعيدان، سقوفها تعلو الرؤوس بشبرين، وأبوابها صغيرة بحيث ينحني المرء، ويظن أنه في جحر حيوان بري أو قن دجاج محلي، وفي الغالب تصنع عرض تلال ترابية بعيدة، تحاكيها في الشكل حتى لتبدو جزءاً منها.

كان المتسوقون قصار القامة، يلبسون جلود الحيوانات، لذلك تبقى صدورهم وأطرافهم عارية متفحمة، يحملون على أكتافهم بنادق طويلة مندثرة توجد مثيلاتها في المتاحف الحربية، وتكاد تفوق بعضهم طولاً. شعرت بغرابة شديدة عندما رأيتهم، وكأني وصلت إلى أرض لم تكتشف بعد. كانت سحنهم بلون التراب، وطريقتهم في الكلام سريعة، ولهجتهم غير مفهومة، واحتجنا قليلاً من الوقت لفهم ما يقولون. كان سوق الاثنين يقام في هذا اليوم من كل أسبوع، ويحوي منتجات ريفية

ومشغولات يدوية محلية يتم عرضها هناك بسعر معقول، وهو سوق قديم درج الناس على إحيائه منذ زمن غير معروف، ولم يتأثر بالانفتاح على الاستيراد عقب ثورة عام١٩٦٢م، فليس هنالك سوى منتجات قليلة غير محلية الصنع، وقد بدا واضحاً أن منطقة القفر الأسفل مازالت أرض مجهولة لم تكتشف الحكومة وجودها، ولا أثر للخدمات العامة فيها، حتى أننا لم نر في طريقنا الطويل مركزاً حكومياً أو مدرسة، والأهالي لا يبدو أنهم يفقهون شيئاً عن الجمهورية ونظامها، وقد رأيت المتسوقين يدفعون بالعملة القديمة، والباعة يقبضون ريال ماريا تريزا، ويردون الباقي بالفكة المندثرة، بقشة أو هللة أو باولة، وسمعت أبي يقول باغتمام:

ـ لا أصدق ما أرى! أخشى ألا يقبلوا النقود الورقية.

وأخرج ورقة حمراء من فئة المائة ريال، وجعل يجول باحثاً عن بعض الجبن البلدي، والخبز المحلي، وظل الباعة ينظرون إلى الورقة بتذمر، ويرفضون استلامها، حتى أصابنا القنوط، وأخيراً عرضها أبي على بائع عجوز، فأشفق علينا، ومنحنا آخر قرص جبن كان في حوزته، وقال بشيء من الاهتمام:

ـ من أين جئتما؟

ـ من الجزء الأعلى من المديرية. أجاب أبي.

ـ لا أحد يأتي إلى هنا دون سبب وجيه.

ومد له بباقي المائة، فدسها أبي في جيبه دون أن يراها، وقال:

ـ أتيت من أجل زيارة شقيقتي المريضة في المقهاية.

هز الرجل رأسه بانفعال، ثم صوب بصره إلي وقال:

ـ وهذا الفتى جاء معك ليزور عمته، أليس كذلك؟

ـ يبدو أن صحتها متدهورة، لذا طلبت أن تراه.

ـ اسمع يا بني، هناك مواضع في طريقك لا يجرؤ عشرة رجال على عبورها، ولا أظنك تملك ذرة عقل حتى تجازف باجتيازها وبمعيتك طفل وحمار.

ـ أعرف أن ثمة أخطار في طريقي، لكن كما ترى، لا يمكنني العودة دون تحقيق غايتي، وسأعبر هذه الطرقات بأي ثمن، ولتكن مشيئة الله.

ـ لنمضي إلى قريتي، فهي ليست بعيدة، إنها على الطريق.

سرنا وراء البائع العجوز ساعتين من الزمن، ووصلنا إلى مجمع سكني صغير على ربوة غائرة، وعجبت إذ يطلق على هذه الملاجئ الوضيعة اسم قرية، ولم تكن قريبة كما ادعى، لكن مقياس المسافات مختلف هناك، فما نراه بعيداً عندنا في القفر الأعلى لا يرونه كذلك هنا، ودخلنا بانحناء إلى مأوى صغير ينتهي بباب واطئ يؤدي إلى حجرة داخلية يفترشها كيسا نوم ملونين من الكتان، فجلسنا في الحجرة الخارجية، وكانت مفروشة بجلود الماعز، وما لبثنا أن لمحنا امرأة عجوز ضئيلة الجسد في الخارج، وسمعناها تخاطب البائع بصوت مكدود:

ـ ماذا جلبت من السوق هذه المرة؟

قال بصوت ناعم ليمتص غضبها:

ـ لم أجلب شيئاً سوى النقود، ها هي لم تنقص منها باولة.

ـ ولكني رأيت حماراً غريباً في الزريبة.

ـ ياه، نعم، لم أخبرك يا حمودة أن لدينا ضيفان، رجل وابنه، فاخفضي صوتك حتى لا يُظن بنا الظنون.

ـ فليظن الضيفان ما شاءا ، أنا هكذا أصرخ، وعليهما أن يتحملا مزاجي الحاد أو يرحلا من بيتي.

كان أبي قد استثير، وغمره الغضب، فهو حساس في هذا الشأن، وكثير الظنون، لكن البائع أتى وهمس له قائلاً:

ـ حمودة امرأتي قادمة، إنها بطبيعتها حادة الطبع، حتى أنها تصرخ وهي نائمة، فإياك أن تظن أنها غير سعيدة بكما.

وسرعان ما دخلت العجوز بوجه متجهم لم يتغير مع مرور الوقت، كان ذلك هو وجهها الحقيقي الذي لا يتأثر بفرح أو حزن، هكذا قال زوجها فيما بعد، وارتعش جسد أبي رغم جرأته، وهو يسمعها تصرخ قائلة:

ـ أهلاً بك أيها الغريب، هل جئت لزيارتنا؟

قال بالكاد:

ـ كلا، جئت لزيارة شقيقتي المريضة.

ـ وهل أنا أختك دون أن أعلم؟ على كل حالٍ، أنا لست أختك، ولا ريب أنها تعيش في مكان آخر.

اسود وجه أبي، وبدا أن هذا الكلام قد جرح كبرياءه، وفهم منه أننا غير مرحب بنا هناك، لكنه تحلى بالصبر وقال بصراحة:

ـ أختي في قرية المقهاية، وسأغادر حالاً.

صرخت بانفعال:

ـ ماذا قلت؟ هل سمعت قول هذا الرجل المعتوه يا حمود؟ إياك أن تدعه وابنه يغادران.

انتصب أبي واقفاً وقد ارتفع حاجباه للأعلى بتصميم، فمال الرجل العجوز إليه وخاطبه بحدة مشيراً بيده:

ـ اجلس يا رجل، لا تكترث بصرامتها، إنها تخشى عليكما من مخاطر السفر.

لكن أبي قرر أن يغادر، وحمل المخلاة واستعد للخروج، لكن المرأة العجوز صرخت بصوت غريب رافعة كفيها عالياً كمن يستغيث، فخرج جيرانها من أبواب ملاجئهم كالنمل المدعو للوليمة، وسرعان ما هرع إلينا عشرة أشخاص قصار القامات متفاوتي الأعمار، فأعاقونا عن الرحيل، دون أن يقولوا شيئاً يبرروا به سلوكهم الغريب، ثم سمعنا صوت العجوز القصيرة وهي تخاطبهم كاشفة عن ذنبنا الجسيم:

ـ هذا الرجل المجنون يود أن يغادر وفتاه في هذا الوقت باتجاه المقهاية.

وعندئذٍ غضبوا بشدة، وصوب أحدهم فوهة سلاحه الطويل إلى صدر أبي قائلاً بعصبية:

ـ سأحميك من نفسك أيها الغريب. ماذا يوجد في رأسك؟ عقل أم عجينة فطير.

احتار أبي من سلوكهم الأخرق، ولم يظن أن هناك ما يبرر لهم إعاقتنا عن السفر وتصويب السلاح إلينا، وقال إن الجميع ممن صادفناهم يتشدقون بأن الطرق محفوفة بالمخاطر، ورغم ذلك لم يمسنا مكروه حتى الآن! وما فتئ القرويون أن رفعوا أصواتهم في وجهه مفصحين أن الأمر مختلف في أرضهم، وأجبروه على العودة إلى موضعه ولعل ذلك البائع العجوز كان أكثرهم لطفاً، إذ لزم جانب الحياد، وبدا أبي حانقاً واجماً، ولكن الجبن والعسل لطَّفا الجو قليلاً، وباتت العجوز تخدمنا بتجهم، وتتحرك حولنا بنشاط مصدرة جلبة كآلة متهالكة، وخرج أبي ليصلي، وبعد قليل عاد وهو بمنتهى الغضب. لأنه لم يجد مسجداً. ولا أدري كيف قضينا بقية النهار، لكن في الليل كما أذكر زارنا الأهالي، أتوا بأطفالهم وكلابهم وعشاءهم وجلود بعض الحيوانات التي اصطادوها، فأكلنا بشكل جماعي، وجلست قرب أبي شابة سمراء قصيرة، وبدا منزعجاً منكمشاً بموضعه، ولم يكف عن الاستغفار رغم جوعه.

بعد أن فرغنا من الأكل جلبت النساء علب سمن فارغة، ونقرن عليها بأصابعهن المطلية بالحناء نقرات متقنة، وصدر عن هذا النقر اللطيف إيقاع راقص متناسق. قام رجلان بأداء رقصة هستيرية متقافزين على أطراف بنان أقدامهم وأيديهم، مضاهين القرود، لم تكن الأرضية تتسع

لمزيد من الراقصين، لذا صاروا يتناوبون، وأدى البائع العجوز وامرأته هذه الرقصة الصعبة، قافزين بلياقة غير متوقعة. تخيلت شيوخ قريتنا الوقورين وهم يرزحون تحت هالة من الحزن والوقار، لابسين قمصانهم وعمائمهم ومعاطفهم الثقيلة في كل الفصول، وليس لهم حديث سوى عن الله واليوم الآخر والعذاب والنعيم المنتظرين! أسمعهم في نهار الصوم وهم يستغفرون الله عن ذنوبهم الغامضة فاركين سبحهم البيضاء المعطرة، وأعظم من هذا وذاك، أراهم يمشون ببطء وهم يئنون، بسبب السمنة وآلام المفاصل، ويناجون ملاك الموت أن يأتي إليهم مهرولاً.

كان هذا الجو الراقص غريباً علينا ولم يسبق أن رأيناه، حتى في أعراسنا الجريئة لا يمكن أن نلمح امرأة تراقص رجلاً، ورغم غرابة هذا المشهد فقد شعرت بالارتياح، وصرت أضحك من قلبي، وبقدر متعتي وفرحي كان أبي يشاهد كابوساً فظيعاً تعافه نفسه وفضائله، وصار وجهه يتقلب ألواناً لفرط الخجل والعار الذي يشعر به، وظل يشيح وجهه بعيداً عن وجوه النساء الباسمة وأجسادهن السمراء وأطرافهن المخضبة بالحِنّاء، كان غناء الفتيات الرقيق يشعل حماس الراقصين، ويثير عواطف المسنين، حتى المرأة العجوز حمودة كانت تسمع بخشوع، دون أن تزول وتيرة جديتها، وهذا طبع راسخ في عائلتها منذ الجد الأول.

رأيت جبين أبي ينضح عرقاً، وبدا وجهه مبللاً بوضوح، ليس من الحر، بل من الشعور بالخزي، أخذت النساء يرقصن بحركات أكثر لطفاً وخفة، متمايلات بليونة تفضح أكثر الأغصان طراوة، وهنا نفد صبر أبي، ونهض على قدميه صارخاً بعنف:

ـ توقفوا، هذا يكفي.

وتوقف الغناء والرقص، والتفتوا ناحيته مندهشين، بدوا غاضبين يرتعشون، والنساء أظهرن جانباً من التذمر، وأخذن يمسحن العرق عن جباههن الندية، ثم نظروا إلى البائع العجوز، وطلبوا منه أن يتفاهم مع ضيفه المجنون، فدنا منه سائلاً باستغراب:

ـ لِمَ تقاطع الرقص والمرح؟

ـ ألا تخشون من غضب الله؟ في قرية العجيب رأيت مسجداً مقفلاً، أما هنا في قريتكم لم أر مسجداً! ماذا يجري لعقول الناس في القفر الأسفل؟

عض الرجل العجوز شفتيه هامساً:

ـ لا شأن لك بهذا يا بني، امكث هنا ليلتك، ثم اذهب إلى حال سبيلك، أهذا جزائي لأنني آويتك في منزلي!

قفز أبي بحركة عصبية وصاح في وجه الرجل العجوز:

ـ نعم، هذا لا يرضي الله، من واجبي أن أنذركم، ويتحتم أن تثوبوا إلى رشدكم...

ـ أتظن أنك الوحيد الذي ينذرنا، لقد أتى إلينا رجال ملتحون كالماعز الجبلي، قدموا لنا المواعظ، ومنعونا أن نقيم عاداتنا، فطردناهم ليلاً كالكلاب، وبعد أيام عثرنا على عظامهم وبقايا أثوابهم البيضاء في الشعاب القريبة.

ـ أولئك الرجال من جماعة الدعوة، وهم مخالفون ويستحقون الطرد، أما أنا فمن فئة الفقهاء وأجدادي كانوا من الأولياء الصالحين، ومهما يكن، ينبغي أن تبنوا مسجداً هنا، وتتوقفوا عن هذا العبث...

انتفش الرجال بسخط، واقتربوا منا شاهرين أسلحتهم، وعيونهم تقدح شرراً، فاستترت خلف جسد أبي الذي مازال يرجف منفعلاً، كان قد استل خنجره وتأهب ليمزق أي شخص يهاجمه، كان رغم حمقه رجلاً مصارعاً لا يهاب الاقتتال، وكانت أمي تخاطبني حين اشتبك في عراك مع الأطفال: "لا تكن مثل أبيك الذي يعشق العراك والمشاكل"، وكنت هادئاً أتحاشى العراك حتى أبدو رعديداً في عيون الفتيان، لكني كنت أواجههم مجبراً، ولا أنس أفعالهم المستفزة بسهولة، وبفضل هذه الصفة الأخيرة تمكنت أن أسجل أحداث هذه القصة حتى النهاية، وهذا لا يعني أنني وجدت مرح الأهالي طبيعياً لا شائبة فيه، بل كان في نفسي بعض الرهبة من تلك الأفعال التي سمعت أنها منافية لأخلاقنا وتقاليدنا، وأكثر من ذلك أنها مما ينهى الله عنه. وتساءلت ليلتها عما يدعو الله للانزعاج من الرقص والغناء. كان لدي شعور بأنه لا شك مبتهج هنا، وربما يرقص مع الراقصين، هل يعني هذا أن لكل أرض إله يتسم أهلها بسماته، أم هو الذي يتحلى بأخلاقهم؟ كنت أحياناً أردد أسئلة مثل هذه على أبي، مستغلاً القاعدة التي تقول بأن القلم مرفوع عن الصبي حتى يبلغ الحلم، بمعنى آخر أن ملاك السيئات لا يسجل أقواله البذيئة، حتى سن البلوغ. سألت أبي ذات مرة: "لماذا يقف هذا الرجل على أكتافنا ويتجسس على أقوالنا؟ أليس التجسس عمل بغيض كما تقول لي؟" فصرخ في وجهي: "اسكت عن كلام السوء، فهو ليس رجلاً كما تظن، بل روح طاهرة طائرة، وهو يفعل ما يأمره الله به،

وله الحق أن يقف أينما شاء حتى في طيز أمك..". ولم أفهم شيئاً سوى أن الحديث عن هذا يجعله بمنتهى الغضب. وها هو غاضب وممسك بخنجره في مواجهة أشخاص قصار مسلحين بالبنادق ويبدون مستثارين أكثر منه. ولم أدرك إلى أي جهة أذهب.

وفجأة، جذبتني فتاة كبيرة إلى حضنها بعطف أم رءوم، ثم أبعدتني إلى الغرفة المجاورة ريثما ينتهي الرجال من تأديب الرجل الغريب المخالف، وانتبه أبي إلى خروجي، فصاح مهتاجاً مهدداً أنه سيفني الأهالي بالطعنات إن لم يعيدوني إليه. بدا واثقاً من قوته القاهرة وقدرته على إبادة أولئك الرجال القصار، موقناً أن الله يقف إلى جانبه. لم يشك بمقدار ذرة أن ربه سيخذله. وحاول القرويون أن يصلوا معه إلى حل وسط، وهذا بفضل البائع العجوز الذي استطاع أن يقنعهم أن يرأفوا بحاله من أجل ولده الصغير، ورغم هذا ازداد أبي تصلباً، وطلب منهم أن يعلنوا قبولهم بقراره السابق، وهو أن يقوموا ببناء مسجد للصلاة، وأن يتعلموا شئون الدين من الفقهاء. وسمعته يقول باستخفاف أن اختطافي لن يزيده إلا إصرارا، وتبسم الرجل العجوز قائلاً:

ـ اسمع، لقد أقنعت الرجال بأنك متعب بسبب السفر، وفي عوز للنوم. لذا سندعك وولدك تمكثان بمكان مريح في القرية، ونحن نمارس الرقص هنا بعيداً عن سمعك وبصرك.

كنت واقفاً عند باب الحجرة الداخلية، تحيط بي النساء والفتيات، ورأيت احمرار عينيّ أبي المفاجئ، وكانت تلك علامة سيئة من علامات خروجه عن طوره، وأنا الوحيد الذي تنبهت إلى ذلك، لذا

صحت بهلع: "احترسوا، أبي سيطعن صاحب المنزل". قفزت حمودة بخفة غريبة، وخطفت صفيحة سمن فارغة، ورمتها إلى حضن زوجها الواقف باطمئنان أمام خنجر أبي المسلول، وصرخت بقوة:

ـ احترس يا "حمود".

التقط الرجل العجوز العلبة الفارغة بخفة يبدو أنهم تعلموها من القرود الجبلية التي تنتشر حولهم، أو اكتسبوها من الرقص ذاته. وهجم أبي عليه بلا وعي كجاموس هائج، مطلقاً صوتاً استعاره من صاعقة رعدية: " خذ أيها الديوث العجوز". وبمقدار السرعة التي امتلكها الضيف الجاحد، استطاع صاحب المنزل أن يرفع العلبة ليفتدي بمعدنها الأصفر الرخيص رقبته الغالية، وغاص الخنجر في علبة الصفيح، وصرخت النساء بفجيعة، وانقض الرجال القصار القامات، وتمكنوا أن يمسكوا جسد أبي المتشنج، ويطرحوه أرضاً بلمح البصر. فبكيت وحاولت غريزياً أن أهرع لمساعدته، وأفك الحبال الملفوفة حول أطرافه. ورأيته يرفس محاولاً استعادة حريته المفقودة وكبرياءه الجريح، أطلق بعض التهديدات السخيفة محذراً من عواقب احتجازه، كان العرق يسيل من عارضيه بغزارة، وأخيراً تعب عن من الرفس والوعيد، ولاح الاستسلام والذل في عينيه المحملقتين، وحدق في الأرض بانكسار، ولم يرفع بصره إلى الوجوه والأجساد المحيطة به، وكأن أنفه ملتصق في قاع الحجرة، وسمعت الرجال قصار القامة يقولون إن أبشع نهاية للتيوس البرية هي أن تفقد قرونها، أو تخصى وهي في أوج قوتها، أو تقع بأيدي الصيادين، وإن الرجل المتكبر كذلك لا يتقبل الهزيمة، وقد يلجأ إلى الغدر أو تدمير نفسه والآخرين ليسترد

قليلاً من كبريائه قبل موته، وبعد أن تشاوروا قليلاً بشأنه مال الرجل العجوز وعرض عليه قانون المنتصرين الخاص:

ـ أعرف أنك تتمنى الموت، مثل أي رجل شريف وقع في الأسر.

حرّك أبي حاجبيه بذهول، ثم أجاب دون أن يرفع رأسه:

ـ وأنت تعرف أنني أهنت في منزلك، هل يمكنك أن تفخر في قتل ضيفك؟

حك الرجل ذقنه قبل أن يرد بغيظ:

ـ لا أريد أن أقتلك، ولا يمكنني أن أدعك تقتل عائل أسرة من القرية، وكما ترى، نحن خلقنا للرقص والمرح والصيد.

ـ لا يخيفني الموت أيها العجوز، بل أريد أن أكون شهيداً..

ـ وهل جئت إلى هنا لتموت؟

وكأن أبي تذكر مهمتنا التي لم تنجز، ومن ثم نظر إلي بحقد كما لو كنت عاملاً إضافياً يثبط عزيمته، وأخيراً رد بكدر:

ـ لقد أدركت حجم المخاطر وتوقعت أفظع الأمور قبل سفري، ولكن عليك أن تخلي سبيل هذا الصبي الرعديد إن شئت.

نظر الأهالي صوبي بشفقه، وغمغم الرجل العجوز:

ـ سنحتفظ به هنا لأن أجواء الفرح تناسبه، سنربيه ونعلمه صيد الحيوانات والرقص.

ـ إنه من فئة الفقهاء، ولن يقبل العيش في هذا المكان القذر دون هدف قويم.

لم أجد في نفسي نفوراً منهم، غير أن رابطة الدم والسنوات التي أنفقتها في عائلتي لا يمكن تجاهلها، وقد فطر قلبي أن أرى أبي ذليلاً، رغم أنه كان يستحق أكثر من ذلك، لذا اقتربت منه، وجعلت أفك الحبال عن جسده وأنا أقول باكياً:

ـ دعونا نرحل وحسب. أرجوكم.

ولم يحركوا ساكناً حتى انتهيت من تحريره، وكان يبدو عليهم الذهول، لكنهم وقفوا متأهبين لأي ردة فعل حمقاء تصدر عن أبي، وسرعان ما نهض مشيحاً كل أثر للذل أو المكابرة، وسار باتجاه الباب المشرع فاراً بجلده، فأخذت مخلاة السفر، وتبعته إلى الطريق، وهناك رأيته والحمار المتخم يسيران بلا هوادة، وفي تلك الأثناء ظهر القمر المحتجب من خلف سحابة بعيدة، كان الليل في منتصفه، وضوء القمر مازال بازغاً مشجعاً على السير، بحيث بدت معالم الطريق واضحة، لكني كنت متعباً متكدراً رغم ركوبي على الحمار، وشرعت في النعاس والميلان، وجعل أبي يحدثني مبرراً موقفه، لقد أحزنه أن يكون هؤلاء القرويين بعيدين عن تعاليم النبي محمد، ومازال يشك أن يكون الإسلام قد وصل إلى هذه القرية، لا يعقل أن يعيشوا بلا دين! ماذا يجري في هذا البلد المجنون؟ هناك مسجد موصد بالأقفال في قرية العجيب! وفئتان تقتتلان على المنبر! وكهل أعمى مخادع يحكمهم بواسطة قطة غريبة وامرأة سوداء! وقرية لا تعرف الصلاة، أهلها يشيعون جواً معربداً من المرح والرقص، والرجال والنساء هناك

مختلطون بلا حشمة! لا شك أن الشياطين يسكنون في منطقة القفر الأسفل، ويبدو أن الفاتحين المسلمين والوعّاظ لم يجرؤوا على المجيء إلى هنا، ومن جاء منهم لم يرجع إلى بلاده حياً. لقد شاهد العجب خلال هذه الرحلة، ولا يدري ما سيلقى في طريقه من أمور بغيضة، حتى إنه صار يخشى أن يصادف أناساً عراة الأجساد يتناكحون على الطرقات كالبهائم، وأقسم أبي في النهاية أنه سينشر الدعوة إلى الفضيلة في طريقه مهما كلفه الثمن، وسيعمل جاهداً على إيقاف تلك الأسمار المعربدة، وسيحوِّل الغناء والرقص إلى أذان وصلوات، ولن يبالي إن يُطرد أو يقتل شهيداً.. فقاطعته بحماس لأبعده عن الشكوى:

ـ كانوا يقفزون في الهواء كالقطط التي تصطاد الفراشات.

رمقني بنظرة خبيثة وقال:

ـ لقد رأيتك منتشياً مستمتعاً بما يفعله أولئك القرود.

ـ ألم يعجبك ذلك؟ سألت بسذاجة.

ـ لا تكن بليداً يا زيد، كأنك لم تر العربدة التي حدثت وكيف انتهى السمر!

سألته ببراءة:

ـ لِمَ يكره الله الرقص والمرح؟

ـ اسمع، هذا سؤال سخيف ليس له جواب، وأخشى أن تصبح متشككاً كالشيطان الأكبر، فهو أول متمرد في الكون، لأنه اعترض على الله في بداية الخليقة عندما طلب منه السجود لآدم.

ـ لِمَ لا نر الشيطان إن كان موجوداً؟

استبد بأبي الغضب، ورفع عصاه في الهواء ليضربني، لحسن الحظ صدر صوتٌ خلفنا، ورأينا الرجل العجوز يهرول بلياقة راقص بارع، حتى استقام أمامنا بجسد مشدود، وتكلم بشكل ساخط، قال إنه في حل من دمائنا، ولام أبي على تصرفه المتهور، وذكره بآداب الدخول إلى منازل الآخرين، فالضيف لا ينبغي أن يستغل منزلته للاعتراض على عادات وأفعال المضيفين مهما بدت له غريبة أو مستهجنة.. كان بوسعه أن يتعلل بالتعب والسفر، ويذهب للنوم. ومن ثم ينسحب بهدوء دون أن تشعر النساء. ومهما يكن فإن الغضب والمكابرة عادتين قاتلتين للمرء ولاسيما المسافر، وقد تورثا له ندماً شديداً، وأكد على أننا في عوز شديد إلى صفارة للفت أسماع السكان المحليين، أو طبلاً يصدر ضوضاء لإخافة الحيوانات، وكذلك دواء للوقاية من سم الثعابين والحيّات، وشالين أحمر وأبيض تُرفع عند الضرورة للفت الأنظار، وإلى نوع خاص من الألعاب النارية، والقنابل الصوتية التي تقذف في الأعراس، والغاية منها تخويف الحيوانات والقرود. وأكثر من هذا وذاك ينبغي التسلح بقدر كبير من المعلومات حول المخاطر المحتملة والأماكن، فالسفر إلى "المقهاية" ليس سهلاً، ويقتضي الوصول إليها يومين للمسافر المُجِد. وقدّم لنا الرجل المسن عدداً من النصائح..

أول نصيحة ثمينة هي أن السفر لا يستحسن في الليل، وإن كان لا بد من ذلك، فهذه الليالي المقمرة خير ميقات، ولكن ليس قبل أن يبني المسافر خطة حصيفة، ويتزود بالأشياء السالفة الذكر، وعليه أن يدرك أين يأوي، وكيف يتصرف إن داهمته الحيوانات، فهناك القرود

والضباع وكلاب الجبل.. والنصيحة الثانية هي أن نعود للتو إلى منزله، لأن ذلك الجزء من الطريق الذي سنجتازه معزولٌ وممتلئٌ بالهضاب والتلال الصغيرة والحيوانات، ولا يجد المسافر أثراً للسكان المحليين سوى بعد ساعات طويلة من السير المتواصل. وإن شئنا بمقدوره أن يؤوينا خفية عن الأهالي. والنصيحة الثالثة أن نسير بهدوء، دون أن نحدث ضجيجاً، ولا نستفز القرود أو نوجه إليها إشارات بذيئة، لأنها أقرب الحيوانات إلى الإنسان، وبوسعها أن تفهم سلوكه وإشاراته وكلامه... ولم يدعه أبي ينهي حديثه، بل شكره بطريقة عدائية ساخرة، وأفصح له بوقار أننا سلّمنا أمرنا إلى الله، وهو خير حافظ، وأنه لن يصيبنا أي مكروه، ونصحه ألا يقلق على رجل انتخبه الله ليقوم وابنه بمهمة مقدسة. ورغم ذلك فارقناه وهو بمنتهى القلق، واستمر يراقبنا حتى اختفينا. وعندما ابتعدنا عنه، قال أبي بتهكم مشيراً إلى الخلف:

ـ ذلك هو الشيطان. ها أنت ذا تراه.

لم أفهم ما يعنيه، فقلت:

ـ أي شيطان...؟

ـ إنه الرجل العجوز الذي فارقناه للتو.

وظننتها فكاهة فضحكت مجيباً:

ـ إنه طيب إذاً، وليس كما يصوره إمام المسجد في مواعظه.

لوح أبي بعصاه قائلاً بغضب:

ـ لا تسخر يا زيد، مازلت صغيراً لا تفقه شيئاً.

ـ ما أمهرهم في القفز! أرأيت كيف كانوا يفعلون؟

لم يسره إعجابي بمن يطلق عليهم لقب الشياطين، وجعل يلعن مدرستي والمعلمين الذين أخفقوا في إرشادي إلى الحقيقة، وماذا يمكن أن يدركه طالب في الصف السادس عن ماهية الشيطان! ناهيك أن مادة التربية الإسلامية كانت مقررة ومليئة بأخبار الشياطين والأنبياء ولاسيما النبي محمد، وعلى الطالب أن يحفظ القرآن وأحاديث النبي. كانت دروس الدين هي ذاتها التي درسها أبي وهو صغير، ولكن الفارق أننا ندرس إضافة إلى ذلك العلوم والحساب واللغة العربية وغيرها، ورغم هذا يفخر بأنه درس القرآن والتجويد، وحفظ جزء "عم" في ستة أشهر. بينما نحن ندرس عاماً بعد عام دون جدوى، ويرى أن علوم النصارى قد أفسدتنا، وهنا كرر الحركة ذاتها التي كان يفعلها عندما يضيق من أفعالي، فهز رأسه قائلاً بامتعاض:

ـ لا جدوى من دراستك. لم تتعلم الإصغاء واحترام كلام والدك، صرت مستهتراً تميل إلى الضحك وتحب الرقص والمرح.

بِت أتكدر من تصرفاته، وهو يضيق من مرحي واستهتاري، لكن الضحك والاستخفاف من طبائع الأولاد في عمري، وها هو يدرك هذا الأمر الآن! ولا غرو أن يبدو مصدوماً، فهو لم يسبق أن بقي إلى جواري وقتاً طويلاً، فنحن لا نلتقي سوى على الطعام، بينما يمضي باقي الوقت في الحقول أو في مجلسه يدخن المداعة، وأحياناً يقرأ القرآن بصوت عالٍ، ولا أحد يجرؤ على الاقتراب من متكئه أو إصدار الضجيج. ويتيح ذلك لي وأخوي الخروج للعب والجري خارج

الدار، أما خلال هذه الرحلة فنحن مضطران للبقاء سوياً والحديث بين حين وآخر لقتل الوقت، وحين أمعن النظر إليه أجده أكبر من سنه بكثير، ولا ألمس أي أثر للزهو في وجهه، بل يبدو كمن يقوم بعمل لا يطاق، ولكنه مجبر على إنجازه.

كان القمر مازال يؤنسنا وسط التلال المنحدرة الغاصة بأشجار القَرَض، ولم يكن أبي يُظهر شيئاً من الخوف، بل أخرج مسدسه بتعالٍ وقال إن لا شيء يقترب من شخص مزود بسلاح ناري، وأن الوحوش تتضوع رائحة البارود، وتخشى من دوي الرصاص، وأكد لي إن ما يشاع عن هذه الأرض هو محض افتراء، فأين هي الحيوانات التي ادعى الشيطان العجوز أنها تقف في طريقنا؟ لقد انقرضت أو هاجرت من أوكارها بمجرد أن امتلك السكان المحليون السلاح الناري، وظل يتكلم بصوت رافع متجاهلاً نصيحة الرجل المسن، وأصبح تصرفه طائشاً كلما اقتربنا من ظلال داكنة أسفل الهضبة، وزاد الأمر سوءاً حين احتجب القمر وسط الغمام، ومن ثم لفنا جو مخيف، وضاعفت أشجار القرض الجافة المنتصبة على جانبي الطريق من الوحشة. وصرت أرتعش فوق ظهر الحمار، وأتوقع أن يباغتنا شيء ما، ولم يكن هناك سوى صوت أبي المتعالي وهو يترنم بنشيد حربي قديم على عزف أصوات الحشرات الليلية الدءوب، وتوقف الحمار فجأة بمنتصف الطريق، رافعاً أذنيه بانتباه، ثم دق حافريه الأماميين على الأرض، مصدراً صوتاً مزعجاً من منخريه. ضربه أبي بعصاه ليحثه على التقدم دون جدوى، وفجأة تناهت إلينا أصوات زاعقة من أعلى الهضبة، ورأينا أطياف حيوانات كثيرة منعكسة خلال الأفق، فشهر أبي مسدسه بتحفز وأشار إلي أن التزم الصمت.

الفصل الخامس

في قريتنا كانوا يتحدثون عن الحيوانات البرية بتهيب، لكنهم لم يروا سوى القليل منها، حتى أصبحت رؤية ضبع شارد من الأمور التي تدعو للدهشة، قالوا إنها تسكن الكهوف البعيدة ولا تخرج إلا في العتمة باحثة عن حيوان أليف ضل طريقه، أو طفل شقي يسير وحيداً في الجبل، كانت أمي تهددني أن أكف عن البكاء حتى لا تسمعني الوحوش، لأنها لا تحب الأطفال الذين ينتحبون، كان هذا يجعلني أتوقف لأصيخ السمع، وأتخيلها خارج دارنا فاغرة أفواهها وسط الظلام، وأنام وأحلم بحيوانات تطاردني وتحاول الإمساك بي، فأهرب منها إلى شجرة أو أقفز من سفح جبل محلقاً في الهواء، وفي الصباح توقظني أمي بصوتها الحاد، وأشعر بفرح غامر، لأن ما حدث كان حلماً، وفي الطريق إلى المدرسة أتذكر بعض الصور والرؤى وأنظر إلى الشعاب والطرقات المؤدية إلى الجبل القريب بانتباه شديد، ولا أجد شيئاً سوى الرعاة ومواشيهم متجهون نحو المراعي.

لكني رأيتها أسفل ذلك الشِعب اللعين، حتى شعور الخوف منها لم يتغير، إنه الحلم... الحيوانات الصاخبة التي زارتني في منامي، إنها قرود الربّاح المختلفة الأحجام، خطر هذا في ذهني بلمح البصر، كيف تحول حلم ماضٍ إلى حقيقة! أردت أن أتكلم عن هذا الأمر، بيد أن الحمار أطلق النهيق، فأسرع أبي ولف الحبل حول خطمه، إلا أن هذا التدبير لم ينفع، وسرعان ما ظهر القطيع بين الأشجار، مطلقاً صيحاته

الرهيبة، وسمعنا الأحجار تتدحرج باتجاهنا، وأوشك الحمار المذعور أن يرميني أرضاً، لكن أبي أمسك بالمقود، حتى ترجلت عنه، ثم سلمني عصاه لأذود عن نفسي، وشحن مسدسه العتيق باضطراب، فعلق التربـاس، وحاول عبثاً تحريره، حتى تملكه الغضب، وطوّح به على الأرض صارخاً بأنه سيمزق أي كائن يقترب منه، ودوى صوت الرصاصة العالقة، وسقط الحمار على جنبه الأيمن مصاباً، واختفت القرود بين الأشجار زاعقة بذعر، وتفتقت حكمة أبي في تلك البرهة، واشتغلت حاسته السادسة التي تعطلت عن العمل زمناً طويلاً، فأسرع إلى المخلاة ونزعها، وجذبني بعيداً عن الحمار الجريح، وحثني على الابتعاد هامساً بحدة:

ـ هيا بنا نفر قبل أن تعود القرود، هذا المنحدر غير مناسب لمواجهتها.

فقلت ببلادة:

ـ وهل ندع الحمار يموت؟

ـ فليمت، إنه مجرد حمار.

وابتعدنا شاقين جانباً وعراً من الشعب، مستترين بالأشجار الكئيبة، وشعرت بالشوك تخترق حذائي، وتسكن في باطن قدمي، وكلما حاولت أن أنحني لنزعها، جذبني أبي ورفسني بقدمه المتشنجة، وعندما أطلقت أنيناً حاداً، طلب مني بغضب أن أحبس صوتي جوف صدري، وصرنا نركض وسط طريق مجهول لا ندرك إلى أين تقودنا. وغسلني العرق، وأحسست بالتعب الشديد، كان جسدي يطير في الهواء، بفعل سرعة أبي الذي لم يتخل عن يدي، ولم نتوقف حتى

وصلنا إلى تجويف أسفل حيد صغير، وهنا دفعني إلى الداخل، قائلاً بصوت حاد:

ـ ساعدني في جلب الأحجار لكي نسد هذا التجويف.

وصارت الأحجار مهما كانت صغيرة تسقط من يدي الواهنتين، وراح جسدي يتمايل دائخاً، وصوت أبي يجلدني بقسوة:

ـ تجلد أيها الولد الرخو.

وصار يأخذ حجرين دفعة واحدة، ويرفع جدار التجويف، كانت أصوات الحيوانات تُسمع عن كثب، وأبي يحاول أن يصنع المستحيل في تلك اللحظات القليلة المتبقية، كان مثالاً صارماً حياً للمقاومة حتى آخر نفس، ومضى يصرخ:

ـ لا تظهر أمامها ضعفك، لا ينبغي أن تموت هكذا ذليلاً.

لم استطع النطق رغم رغبتي أن أجيب بأن طاقتي نفدت، فلهاثي وأنفاسي الصاعدة والهابطة أعاقتني عن الكلام، وارتعاش جسدي وخدر أعصابي منعني من جلب الأحجار. لم أعد أدخر أي جهد للمقاومة، وأخيراً برزت القرود بالعشرات على المرتفع الصغير، ثم هبطت وهي تدحرج في طريقها الأحجار الكبيرة التي كادت أن تسحقنا، ولجأ أبي إلى مسدسه المتهالك، فشحنه وأطلق النار، وسقط حيوان صريعاً وابتعدت القرود، واستطاع أبي أن يجمع المزيد من الأحجار، ثم عاد ليبني الحاجز، لكن صخب أصوات القرود ارتفع أكثر من ذي قبل، وهجمت علينا من جميع الجهات، وشحن أبي مسدسه، لكنه خذله، فرماه بتصنع متمنياً أن تنطلق منه رصاصة

تخيف المهاجمين، غير أنه تدحرج حتى سقط قربي دون أن يحدث شيء، فنظرت إليه بتشاؤم، ثم صرفت بصري عنه محبطاً.

عادت إلى مخيلتي أجواء الحلم القديم بما تحمله من هلع وغموض ويأس، وبقيت جامداً دون حراك. كان أبي يصرع الحيوانات المهاجمة بالعصا، مطلقاً صوتاً وحشياً تحذيرياً صاخباً، وأجدى هذا الأسلوب نفعاً، حيث أصيبت القرود بالرعب، وتوقفت بين الأشجار لا تجرؤ على التقدم، ولكن أبي أحس بنشوة النصر، أو مسه الهوس، فأخرج لسانه وأطلق ضحكة ساخرة رهيبة، ثم شمر قميصه، وأطلق باتجاهها نافورة بول صغيرة، وهو يصيح بصوت رهيب:

ـ سأحاربكم بقضيبي هذا، يا أبشع حيوانات خلقها الله.

شعرت بالحنق، كيف أغفل أبي نصيحة الرجل العجوز، ومن ثم أرسل إليها تلك الإشارة القبيحة! فعلاً شرعت القرود تزعق وتثور، وهاجمتنا باستماتة، وصار أبي يضربها بقوة مدافعاً عن نفسه، وشعرت بنفسي أسحب بعيداً، فأطلقت صيحة قوية، وتشبثت بساق شجيرة برية صغيرة، وهرع أبي في الحال لإنقاذي، وشتت شمل المعتدين بضربات فتاكة، فاحتميت خلف جسده جاثماً على ركبتي، وارتفعت صيحات القرود أكثر، وما لبثت أن تداعت علينا في هجوم مرتد كاسح، وأسقطتني على الأرض، وداستني بأقدامها ذات الشعر والمخالب القاطعة، واقشعر بدني، وجمدني الخوف، وأنا أراها تقذف أبي أرضاً وتتكوم فوق جسده مثيرة صخباً وحشياً وسحابة من الغبار، حتى لم أعد أرى شيئاً سوى أطياف أقدام وأجساد تقفز في الهواء،

وتوقعت أن يكون أبي ميتاً، ثم أتى صوته المتألم وانياً مختلطاً بصراخ الحيوانات، وبالكاد سمعت شيئاً من كلامه:

ـ المسدس، المسدس يا زيد...

زحفت على بطني مستغلاً الفوضى والغبار الكثيف، كان المسدس قريباً جداً، لقد رأيته من قبل وأعرف مكانه، خشيت أن تكون أقدام القرود قد قذفته بعيداً، ثم لمحت جسده المعدني الأسود على الأرض، كانت الأقدام تدوسني وأحياناً تتحاشاني، وتوقعت أن تعترض طريقي، وتهاجمني، ومع ذلك لم أتوقف حتى قبضت على المسدس بأصابع مرتعشة وضغطت على الزناد، ولم يحدث شيء، فضربته بيأس على حجر قريب، وحينئذٍ انطلقت الرصاصة وطار الشرر على سقف التجويف، فهربت القرود وتوارت بين الأشجار، وعم الهدوء وكأن الأرض ابتلعتها، ونهض أبي وهو يئن ويتمايل كالمخمور، ولم يَعُد عليه سوى نتف من الملابس، ورأيته يبحث عن شيء ما، ثم سمعته يخاطبني بضعف:

ـ أشعل المصباح، وابحث عن عمامتي يا زيد.

أشعلت المصباح، ولم أجد لها أثراً، ثم التفت إليه وصحت بذهول:

ـ الدم يغطي جسدك كله.

أخبرته أيضاً أن الجراح والخدوش تملأ عارضيه وأطرافه وعنقه وظهره العاري، فنظر إلى أطرافه بلا اكتراث، وبالكاد استطاع أن يقول بصوت متهدج:

ـ لا أشعر بأي ألم.

قلت بصوت مختنق:

ـ دعنا ندخل التجويف، أو نعود إلى الرجل العجوز.

صاح بحنق:

ـ لقد قطعنا مسافة طويلة يا زيد، ولن أتراجع للخلف، قرية المقهاية أمست قريبة جداً، ولولا جروحي لن أتوقف عن السير.

واستلقى قرب المخلاة مستسلماً للوجع والأنين، فتفقدت جسده على ضوء السراج، ولمحت عشرات العضّات الكبيرة والصغيرة السطحية والعميقة في كل موضع فيه، وأبشعها عضة عميقة في العنق مازالت الدماء تخرج منها دافئة، حتى قضيبه أصيب بخدوش رهيبة، وكلما لمست موضعاً يصيح متوجعاً رغم رباطة جأشه، وقال أخيراً متشككاً:

ـ يقال إن عضات الكلاب والقرود تؤدي إلى الموت، لكن لا بأس، أنا أنفذ أمر الله، وأثق أنه لن يخذلني.

ـ نعم، لكنك لم تسمع كلام البائع...

ـ اسكت أيها النذل.. لن أندم على نصيحة ذلك الشيطان العجوز، ولا يمكن أن أتراجع عما أمرني الله أن أقوم به.

أحسست بالحنق، لأنه يتكلم عن مهمته الربانية بتبجح، وكأن حياتي وحياته لا تساوي شيئاً، ما لبث أن قبض حفنة من التراب، وطلب مني أن أذرها على الجروح العميقة، كوسيلة لإيقاف نزيف الدماء. فترددت

عن القيام بهذه الخطوة، لأني تذكرت مما درسته في مادة العلوم بأن التربة قد تكون ملوثة بالجراثيم، لكنه ألحف في طلبه، ففعلت ذلك مرغماً، ثم أمرني أن أرفع حولنا حاجزاً دائرياً من الأحجار، وأجبرني أن أتفقد مخزن المسدس وأحصي عدد الرصاصات التي بحوزتنا، وحثني أن أشحن السلاح وأبقيه في وضعية الاستعداد لإطلاق النار، بدا موقناً أن الحيوانات ستعاود الهجوم على التجويف، وهذا بعث الخوف في روحي، ففعلت كل ما طلب. ثم أمرني بإطفاء المصباح، والبقاء يقظاً للحراسة، وحذرني بضع مرات من الخلود للنوم قبل حلول الفجر، وفي النهاية همس بصوت مجهد مكرراً القول:

ـ اسمع يا زيد، أشعر بوهن شديد في جسدي، وينبغي عليك أن تسهر لتحميني وتحمي نفسك أيضاً، فإياك أن تنام أو تفلت السلاح من يدك.

ثم أغمض عينيه، وساد سكون تام، كان القمر محتجباً، وضوؤه خافتاً شفافاً، فيما ظلال داكن يلف جسدينا المتعبين بغلالة سوداء. وفجأة أحسست بوخز في ساقي وذراعي، فأشعلت المصباح بحذر، ورأيت بضع خدوش صغيرة، ولا أدري هل صنعتها القرود بأسنانها أو بأقدامها أو حدثت بفعل احتكاكي بالأرض؟ واعتراني مقدار هائل من الخوف والضجر، ولم أجد شيئاً يخفف عني أو يؤنسني سوى أنين أبي وأنفاسه المتصاعدة. أضحت عيناي مشدودتان إلى الأشجار، وإلى ذلك الفراغ الشفاف الغريب الممتد في الخارج. كان المكان رطباً ضيقاً، ونحن متكوران مختبئان خلف حاجز دائري صغير من الأحجار المعمورة على عجل، وبوسع عطسة أو هبة مفاجئة للريح أن توقعها. لذلك حرصت أن أمد ساقيّ بعيداً عنه، وبرغم أن الأحجار المتراكمة لا يعول عليها، لكنها كانت تخفي جسدينا على الأقل، وتمنحنا أملاً

ضعيفاً بالأمان. كان عندي حدس حاد بأن القرود في موضع قريب، وأنها تراقبنا وتتأهب للهجوم، وكم فزعت حين طار وطواط من سقف التجويف. كنت مرهقاً بشدة وخائر القوى، وأعرف أني لا أستطيع أن أقوم بواجب الحراسة والسهر، ورغم ذلك حاولت أن أجبر نفسي على البقاء متيقظاً أكبر مدة ممكنة.

أفقت فجأة إثر صرخات رهيبة، لم أدرك كم مضى من الوقت وأنا نائم، كانت القرود تدور خارج التجويف بجنون، رأيتها خلسة تمسك بالمخلاة وتنثر ما فيها على الأرض، وتتصارع على محتوياتها، سألت نفسي بعجب كيف اقتحمت التجويف وسرقت أغراض الرحلة دون أن أشعر! تحسست الأرض من حولي باحثاً عن المسدس، لكني لم أعثر عليه، فشعرت باليأس، وجعلت أراقب ما يجري بقلب واجف وأقول لنفسي بسخط: كيف تركت المسدس بعيداً عن متناول يدي! يا لي من مخبول. كان إلى جواري الخنجر والسراج والمصباح اليدوي وعصا أبي، وكلها لا تخيف الحيوانات كالسلاح الناري. كنت أعرف أنه بالقرب مني ولكن في تلك البرهة العصيبة لم يسعفني الوقت لأتذكر أين وضعته، ولا يمكنني أن أضيء المصباح أو أصدر صوتاً.

كانت القرود تتحرك بفوضى في أرجاء المكان، حتى خشيت أن يصطدم أحدها بالجدار الهش الذي يسترنا. فأخذت أدق صدر أبي بكعب قدمي لأنذره بالخطر، ولكن لا حياة لمن تنادي، سمعت صوت أنينه الخافت فأدركت أنه لا يكاد يشعر بنفسه. وما لبث قرد صغير أن قفز فوق الأحجار، فانهار الجدار ولحسن الحظ لم نصب بأذى. لأنه وقع على الجهة الأخرى، غير أن موضعنا بات مكشوفاً، وسرعان ما انكشف أمرنا، فاقتربت القرود مطلقة أصوات عالية غريبة وكأنها

تعبر عن دهشتها وغضبها، قائلة بلغة الإنسان: ها هما الدخيلان المخادعان مختبئان هنا. تعالوا نلقنهما درساً آخر. وتملكني الرعب حين جال هذا في ذهني، فمكثت بموضعي أهنهن ببكاء مكتوم، متوقعاً نهايتي الوشيكة. ولم أصدر أي صوت أو حركة، ومع ذلك، هجمت القرود وتكومت فوق جسدينا، وجعلت تتقافز بانتصار، وأخذت تجرني على أرضية التجويف الوعرة ثم تخلت عني وجعلت تتحرك بلا هدف فاغرة أفواهها، أما أبي فقد انكفأت عن جسده الهامد المثخن بالجراح وكأنه لم يعد يستحق العناء.

رأيتها خلال ضوء الفجر الشفاف تتصارع على أغراضنا المتبقية، الفانوس والمصباح اليدوي والخنجر والعصا والمسدس، كانت تتجاذبها بلهفة وتوق كما يفعل أشخاص فقراء عثروا على كنز قديم، وفي البدء أصيبت بالرعب عندما أضاء المصباح اليدوي، فابتعدت عنه للحظات، ثم جعلت تراقبه بفضول، وتصرخ وعيونها متصلبة عليه. وكشف ضوءه المشع عن قردين يتنازعان على مسدس أبي المتهالك، فاعتراني الخوف الشديد، لأن السلاح كان مشحوناً ولا يفصلني عنهما سوى متر واحد أو مترين على الأكثر، لذا انسحبت للخلف بضع خطوات، وفجأة اقترب قرد ضخم وهجم على القردين المتخاصمين بضراوة، واختطف منهما المسدس، وحدث ما كنت أخشاه. وسقط القرد الكبير أرضاً فاغراً فاه، وهربت القرود إثر الانفجار. ثم آبت على غير العادة، واقتربت من القرد الجريح، وأخذت تهيج وتصرخ، كانت تبدو حزينة ومتوترة وعاجزة عن فعل أي شيء. وتملكني الخوف أكثر من ذي قبل حين فطنت أن هذا القرد يحظى بمكانة رفيعة في القطيع. تصورت مقدار حنقها من الشخصين اللذين

جلبا هذا الشيء المميت الذي تسبب بمقتل الزعيم المجلل، لن تجد أحداً غيري لتشفي غليل حزنها وحقدها، هكذا فكرت، وصرت أتوقع أن تمزقني بين فينة وأخرى، لكن الفاجعة بدت أكبر مما توقعت، وكأن موت عدد كبير من الناس لن يشفي غليلها أو يعوضها عما فات، لعلها لم تدرك بعد سبب موته، وهذا جعلها مشوشة ومحبطة، وربما راق لها أن تتركني فريسة للخوف والإهمال لأموت ببطء..

هكذا بقيت قرب القرود الهائجة ملقى على الأرض بإهمال كحجر جامد، وهي تتحرك حول الجثة وتشم الجسد الميت بتأثر، ولا تكف عن إطلاق صيحاتها الحادة وكأنها تتجادل فيما بينها حول ملابسات هذه الجريمة الغامضة، وترددت في أعماقي صيحة أبي الحادة، "المسدس يا زيد، المسدس..."، وكأنه مازال يحثني على استخدامه، حدجت التجويف بنظرة فاحصة متسائلة، ورأيت طيفه نائماً بلا حراك. كان السلاح الغادر ممدداً على الأرض إلى جوار قدمي، ولا أحد يوليه اهتماماً. رأيته بوضوح على ضوء المصباح، وشرعت أسحبه بأصابع قدمي، حتى استقر في يدي، كان لدي شعور غريب محفز بأني لن أخفق أبداً في استخدامه، فشحنته ببراعة غريبة وصوبته إلى الفراغ. وأطلقت النار، وتفرقت القرود في كل الاتجاهات، فنهضت متشجعاً وتبعتها وشحنت السلاح ثانية وأطلقت النار على أعقابها. ثم عدت وسحبت القرد الكبير بعيداً عن التجويف ورميته بين الأشجار. ورأيت عيونها تومض من أجزاء متفرقة من ذلك الشِّعب.

كانت النجوم قد شرعت تغادر السماء، ولم يعد هنالك سوى انعكاس طفيف لضوء القمر المحجوب، وفي تلك الأثناء اعترتني شهوة مميتة لمواجهة وسحق أي كائن يريد مواجهتي، بل شعرت بمتعة لم أعرفها

من قبل حتى أنني تمنيت أن تعود الحيوانات لمهاجمتي مرة أخرى. كان ذلك كما اكتشفت لاحقاً جزءاً من طاقة حيوية جامحة تكمن في موضع مجهول من أعماق الإنسان، ولا تنبعث سوى في أوقات وظروف استثنائية. وعلى إثرها تتحد جميع قواه العضلية والذهنية لتنتج قوة هائلة لا تقاوم، لا أعرف حقاً إن كان ذلك صحيحاً أم لا، ولكن هذا ما حدث دون شك. وأول ما تبادر إلى ذهني هو أن أشعل ناراً أخيف بها الحيوانات وأستضيء بنورها، وعثرت على فروع أخشاب يابسة محروقة الأطراف منتشرة في أرجاء التجويف، وساورني شعور بأن هناك رجالاً مجهولين مروا من هنا، وأشعلوا النار، لا أعرف كيف توقدت جذوة ذهني وصرت سريع البديهة! حتى تمكنت أن أرى في الظلام وأفعل الأشياء بمنتهى البساطة، فكرت بأمور غامضة غير مرئية. انتبهت مثلاً أن الذين أوقدوا الخشب في وقت سابق تعرضوا لهجوم مشابه، ولم يتسن لهم أن يحموا أنفسهم، بدليل أن الخشب في التجويف كان مشتتاً محترق الأطراف، وفهمت أن النار هي وسيلتي الوحيدة للذود عن نفسي، فجمعتها وكومتها عند المدخل العريض، وسرت أجوب أرجاء المكان باحثاً عن أعواد الثقاب، لم أكن أظن أن أجدها على إثر تلك الفوضى التي حصلت، وبالكاد عثرت على بقايا العلبة الصغيرة وبضعة أعواد متناثرة ووجدت قارورة الزيت سليمة، وعدت متحمساً وكأني أحمل أكسير الحياة الذي تحدث عنه قدماء الفلاسفة والحكماء. وكاد قلبي أن يقع تحت قدمي وأنا أرى أمامي كائناً عارياً متورماً ويبدو مشوهاً كمسخ آدمي، فأطلقت آهة فزع رهيبة، وسمعت الرجل الذي لم يكن غير أبي يقول متسائلاً:

ـ ماذا تفعل يا زيد؟

قلت زافراً بضيق:

ـ كما ترى، أحاول أن أوقد ناراً، لكنك أخفتني بجسدك العاري.

ارتد إلى الخلف ساتراً عورته بيده وأجاب:

ـ آه يا بني، لقد فقدنا الحياء في هذه البرية!

وسار إلى موضعه وستر جسده بدثار، ثم أتى وأفرغ بعض الزيت على الخشب، فأشعلت النار. وسرعان ما تأججت وكبرت وأضاءت المكان. تكوم أبي قرب الشعلة منكمشاً مطأطئ الرأس، عيناه وارمتان وجفناه ظهرا وكأنهما مطبقان حتى لا يبدو أنه يبصر شيئاً، ولاح جسده سميناً بفعل انتفاخ جروحه، ولكي يثبت أنه مازال يرى سألني باهتمام:

ـ ماذا جرى لك؟ ثيابك ممزقة باستثناء سروالك الداخلي!

ـ ماذا تظن؟ لقد هاجمتني القرود وعبثت بأغراضنا وأنت نائم، وأخشى أن تعود إلى مهاجمتنا بعد أن مات أكبر قرد في القطيع.

قلت ذلك متجنباً أسئلته، فصفق جذلاً وقال:

ـ لن تجرؤ على الهجوم دون قائد جديد، ستدور بينها معارك شديدة حتى يتغلب أحد الذكور على أقرانه، لقد سمعت ذلك يوماً من رجل مسن، أخبرني كيف حدث هذا؟

رويت له ما حدث باقتضاب، كنت منشغلاً بمراقبة المكان، متوقعاً أن نهاجم في أي لحظة. بدا أبي قلقاً أيضاً، ونظر بخوف صوب النجوم المتبقية في السماء، وأعلن أن الظلام يكاد ينقشع ولم يعد هناك سوى قليل من الوقت حتى تظهر معالم الطريق. وأكد لي كعادته بأننا سننجز مهمتنا على أكمل وجه، ولكنه أبدى أسفه من شكله البغيض الذي لا يتحتم أن يقابل أحداً به. وكأن هذا كل ما يشغله. وكان محقاً في تقدير حجم الأذى الذي لحق بمظهره، فلا يوجد موضع في جسده خالٍ من وخز الأسنان وبقع الدم المتجمدة. ومازال هناك مواضع مفتوحة تنز صديداً. ولم يسلم خدّاه وذقنه وأنفه وأذناه وجفناه وكذلك المواضع السرية المستورة لاسيما قضيبه، وأفصح أن هذا كله يهون، وما يخجله حقاً هو أن يقابل أخته دون ثياب! وأذكر أنني قلت له بعتب:

ـ لم تسمع كلام الرجل...

قاطعني بغضب:

ـ كفى يا زيد، لا تعاتبني على عدم إتباع ذلك الرجل.

وأعقب بعد وهلة:

ـ أرأيت رجلاً مسناً يلهو ويرقص بين النساء ويسمع الغِناء؟ نعم. لن تجد هذا في أرضنا، ويتحتم أن نقاتلهم ليؤمنوا بالفضائل.

حبذت الصمت، مدركاً بأن كلامه يبدو صحيحاً.. حقاً، أنا لم أر في قريتنا شيخاً أو شاباً يرقص أو يسمع الأغاني، ولكن الناس هنا لهم تقاليد وعادات غريبة، ويجب عدم اعتراض سبيلهم، يظن أبي أن الأرض يجب أن تعمر بالمساجد، وأن على الناس جميعاً أن يكونوا

فقهاء ومؤمنين ولو استدعى الأمر استخدام القوة وإراقة الدم، وهذا يعني أن تقتلهم لكي يؤمنوا بما تريد. ما أغرب هذا الأمر! أدركت أن الجدال حول هذا الشأن لن يجدي شيئاً، لذلك استلقيت جوار النار بهدوء، وتفحصت ما لحق بجسدي من أضرار، بينما تفحص هو الأجزاء الخلفية التي لا أستطيع رؤيتها. كنت محظوظاً للغاية، لأن معظم العضَّات كانت مركزة على أطرافي. أخذ أبي يفصح عن جوعه وعطشه، وشرعنا نبحث حول التجويف، واستطعنا أن نعثر على كسرات من الكعك ملوثة بالتراب، وحالفنا الحظ واستعدنا قنينة الماء البلاستيكية ومازالت مقفلة نصف ممتلئة، فأكلنا وشربنا دون تأفف، ثم استجمعنا قوانا حين رأينا معالم الطريق، ورحلنا عن التجويف ونحن في حالٍ يرثى له.

الفصل السادس

لا تراجع إلى الوراء، هذا هو شعار أبي الذي لم يتغير منذ بدأنا الرحلة، لكني تمكنت في ذلك الصباح من استقراء المستقبل. كان مازال لدي جزء من الطاقة الاستثنائية لأعرف أن المتاعب مازالت في طريقنا. ومن ثم أجريت حساباً مبتسراً سريعاً لما نملكه لمواصلة السفر، قنينة شارف ماؤها على النفاد، وكسرتي كعك معفرتين بالتراب، وخمس رصاصات في مخزن المسدس، وكمية أخرى منها في المخلاة، وعصا وخنجر ومصباح وفانوس وقليل من الزيت وثلاثة أعواد ثقاب. ومازال أمامنا يوم ونصف اليوم للوصول إلى قرية "المقهاية" حسب قول الرجل المسن. وربما نقضي يومين أو أكثر في السفر، لأن الحسابات والقياسات تختلف من مكان إلى آخر، وهناك أمور ينبغي أن تؤخذ بالاعتبار، وهي سرعة السير، واختيار الطرق المختصرة والمتاعب المحتملة في الطريق. ولكن أبي ذكرني أني نسيت شيئاً لم أذكره رغم أهميته، وهو الله رب العالمين. نظرت إليه بحنق وهو يمشي متألماً محني الظهر وكأنه شيخ في آخر العمر. وقلت لنفسي بانقباض: كل هذه الجروح ومازال يظن أن الله في السماء! وكأن أبي قرأ ما دار في ذهني أو لعل ذلك جال في نفسه أيضاً. فقال بصوت متقطع:

ـ لقد نجونا وانتصرنا على القرود في النهاية. أليس هذا دليلاً على أن الله يؤازرنا من عليائه؟

قلت بضيق:

ـ ألا ترى كيف غدت أشكالنا؟

ـ هذا لا يهم يا زيد، يستحسن أن نشكر الله لأننا مازلنا أحياء رغم كل ما حدث، سوف تخلد رحلتنا في أذهان الناس سواء عشنا أو هلكنا.

ـ إن هلكنا لن يعرف أحد قصتنا ومصيرنا، ولن نحصل على مراسم دفن لائقة. لأن الوحوش لن تبقي منا شيئاً.

ـ لا تذكر هذه الأمور المشئومة، إننا نهب أجسادنا في سبيل الله وحسب، ألا تحب يا زيد أن تكون شهيداً؟

قلت بفزع:

ـ شهيداً؟ لا، لم نتفق على هذا، لقد جئنا إلى هنا لنزور امرأة.

ترنحت ووقفت بموضعي مُزْورَّاً، وأضفت محتداً:

ـ أتريد أن نموت حقاً؟

صاح بصوت مختنق متجاهلاً سؤالي:

ـ أتظن أن هذا هو الوقت المناسب لنفترق، إن كنت تريد أن تترك والدك هنا وتعود فافعل ذلك أيها الولد العاق.

ـ لدي حدس ينبئني إن الأمور لن تسير على ما يرام، إن جسدك ضعيف جداً، ولا شك أن الليل سيدركنا...

ـ ماذا تنتظر؟ عُد إلى ذلك الشيطان العجوز، وامض حياتك في الرقص والمجون. أتظنني رعديداً؟ كلا، لست ضعيفاً أو عاجزاً عن السير كما تظن.

وانكفأ يسير مكابراً متحدياً، بدا واهناً بشكل واضح، وخطواته متعثرة. ورغم ذلك لم يتوقف، وعرفت أنه لا يملك من القوة ما يجعله يسير وحيداً دون رفيق. لذا نظرت إليه مشفقاً، وانسقت وراءه مكرهاً، إنه أبي على كل حال، ولا يتحتم أن أتركه، قلت هذا في سري ضارباً بحدسي المتشائم عرض الحائط، ورأيت ألق النصر يشع في عينيه، وما لبث أن هتف بتهكم:

ـ الحمل يسير وراء والده يا زيد، هذا هو الصواب.

كرهت لقب "الحمل" الذي أحمله منذ الصغر، هل أظل تابعاً له طوال الرحلة حتى نهلك سوياً! نعم، لم يكن بيدي حيلة لثنيه عن المضي قدماً، ولا أستطيع أن أعود وحيداً، كان واثقاً من كل أفعاله وأقواله وتهوره، ولا يكترث بالعواقب مهما كانت سيئة. كان الأهالي في قريتنا يصفونه بأنه صاحب رأس يابس، فما يدخل رأسه من اعتقاد لا يتبدل مهما تبدلت الظروف والأزمان. لا يخش أحداً سوى والده. ويبدو أنه مقدر لي أن أخشاه وأتبعه أينما ذهب، هذا قدر كتب على جبيني منذ الأزل، وهو تقليد موروث وقيمة مثالية مكتسبة في تربيتي. بل هو غريزة تسري في عروقي. ولن آسف على السير خلف أبي رغم كل ما جرى لاحقاً. وإن أتيح لي مرة أخرى سأتبعه في رحلة أكثر هولاً وقسوة، وأجزم أني لن أخذله البتة، ليس بدافع المثالية التافهة أو رابطة الدم، ولكن بدافع الغريزة وحسب.

كانت الشمس الشارقة بازغة، والأرض جدباء مكسوة بأشجار جافة رهيبة، ولا أثر لحيوانات أو مساكن أو رعاة، تلال وقيعان ساكنة تبعث على الوحشة، امتداد لا منتهي يجعلك تنسى ماضيك وتفقد الأمل في مستقبلك، ولولا الجروح الظاهرة على جسدينا لحسبنا أن ما جرى لنا كان حلماً. وبعد صمت طويل، قلت رانياً إلى أبي باهتمام:

ـ أتظن حقاً أننا انتصرنا على القرود؟

رمقني بنظرة جانبية تائهة قائلاً بشرود:

ـ أي قرود؟ عما تتكلم؟

ـ انظر إلى جسدك.

وغمرني الحنق، كيف يجرؤ على إنكار ما جرى في الليلة الماضية؟ هل أصيب بداء النسيان؟ هكذا فكرت فانبرى ليقول مبدداً حيرتي:

ـ آه، نعم، هاأنذا أتذكر، لقد هاجمتنا القرود، ولا يمكن لتلك البعوضات المتوحشة أن تعيقنا عن السير. أتود أن تخيفني أيها الماكر؟

ـ كلا، أنا أتحدث عنها دون أن أقصد شيئاً...

ـ تحاش التفكير بما حدث، انظر إلى الأمام وحسب.

ـ وأنت كذلك.

استبد به الغضب، وانتفض جسده كله، فصرخ بصوت متوحش:

ـ لا تأمر والدك بما يجب أن يفعل، لست رفيقك في المدرسة، لا تغرك صحبتنا في البرية حتى تفقد احترامك.

لقد أدرك أخيراً أننا تائهان في البرية، وهذا هو سبب صراخه وهياجه، وفطنت أيضاً أنه لا يريد أن يلوح واهناً متعباً رغم أن لهاثه وأنينه يقاطعانه بين جملة وأخرى. لم يعد هناك غير صوته المبحوح المدوي، وبعد قليل من اللحظات مال جانباً وجثم تحت ظل شجرة سدر متذرعاً بالحر الشديد، ولاحظ وجومي وكدري فقال مفاخراً بأبناء جيله:

ـ أتعلم يا زيد، كنا نقطع مسافات شاسعة دون أن تند عن أجسادنا قطرة عرق. وقد تعرضت في صغري لمتاعب لا تخطر لك على بال.

وندت عن وجهه تكشيرة استخفاف، ثم أضاف:

ـ لكنك من جيل ركيك البنية أتى على مأدبة جاهزة مليئة بالأطباق. حتى أنكم لا تعملون في الحقول سوى القليل متذرعين بالدراسة، أما نحن فقد تحملنا أقسى الأعمال وسلكنا أشق الطرق. لذا فأنا أشفق عليك يا بني.

ـ وأنا كذلك أشفق على جيلك الوسيط، لأنكم لستم بسطاء وأقوياء كالأجداد، ولا متعلمون وأذكياء كالأحفاد، أنتم مجموعة من المكابرين الضعفاء والمؤمنين الشواذ.

ومكث أبي مدة من الوقت مصعوقاً لا يستطيع أن يتحرك أو يستوعب ما سمعه من كلام غريب ثم انفجر صارخاً كلغم أرضي:

ـ من أملى عليك هذه الجمل المنحرفة أيها الحمل اللعين؟ أقسم أننا أكثر صلابة وحنكة من جيلكم المنحرف. تعال، قاتل هذا الرجل العجوز إن استطعت.

ورمى الدثار القذر جانباً وكأنه تخلى عن مبادئه في الحشمة أو أن هذا الشيء كان يعيقه عن الحركة ويضعفه. ثم انتصب مستعداً للنزال متوثباً مثل حصان حرون، ولم أصدق ما أراه، فتسمرت بمكاني متهيباً خائفاً، وجعلت أبكي شاعراً بالندم، توقعت أن يسحقني كحشرة، لكنه أخذ يطوح الأحجار بقوة، ويهز جذع الشجرة منفعلا، وبقي يستعرض قواه وقدراته العضلية مدة من الوقت، ثم تنحى جانباً وصاح بصوت لاهث:

ـ اسمع، لا تحتقر قوتي أو تنظر إلى فرجي، لم يعد للقيم أهمية في هذه الأرض الموحشة، سأمزقك إرباً إن أسأت التصرف ثانية.

انتبهت أخيراً إلى عريه، فأشحت نظري بعيداً، وصرت في وضع مشين من الخزي والارتباك، كان مكشوفاً كبصلة حمراء معطوبة، ردفاه القبيحان ووركاه وعضوه الضامر المأكول. كيف أصرف نظري عن رجل عارٍ يسير أمامي؟ وصار يقفز بحيوية قرد مشاكس، هل كان يتظاهر بالضعف ليمتحن ردة فعلي؟ أم أن ذلك الدثار القبيح جعله معاقاً مثل متسول عجوز؟ بقيت محتاراً لا أجد مبرراً لتظاهره بالضعف، لقد خدعني على كل حالٍ، وها هو يسير أمامي بجسده الأسمر المعضوض، وردفاه القويان يترجرجان يميناً وشمالاً، كان

عريه الغريب يعذبني، ولا أستطيع أن أشيح تفكيري أو بصري عنه، فقلت أخيراً بصوت يفيض حنقاً:

ـ أبي، هلا تتأخر إلى الخلف؟

سدد إلي ركلة خلفية موجعة، وقال دون أن ينظر ناحيتي:

ـ لا أحد يتقدم والده في السير.

ـ ولكني أراك...

ـ لا تنظر وحسب.

تقدمنا نغذ الخطى صوب التلال الصغيرة الجاثمة على السهل الأجرد، أجسادنا غدت جوفاء وأفواهنا ناشفة، والأشعة الكاوية تكاد تحرق أعضاءنا المكشوفة للشمس، وفتك بنا الجوع والعطش، وتأمل أبي الأرض من حوله، ثم انتحى إلى شجرة تين شوكي، وقرفص تحت ظلها الوئيد متورد الوجه، وظهر السخط على صفحة وجهه المحبط، وأفصح معترفاً أن لا آثار بشرية ظاهرة على الطريق، ما ينم عن أننا الوحيدان اللذان سلكا هذا المكان. وأكد بأن العثور على طريق واضح للعبور أكثر أهمية من الأكل والشرب وسط متاهة من التلال المتشابهة. ثم قام على عجل وسار باتجاه منخفض يغص بأشجار الأثل، فسرت وراءه متمنياً أن أعرف ما يدور في رأسه. بدا شكلنا شاذاً في الطبيعة، فتى صغير متقطع الأنفاس ممزق الثياب، كأنما انتشل من بين أنقاض منزل محطم، إلى جوار رجل راشد مغبر كثيف الشعر توارت جراحه تحت طبقة من الأوساخ، وبوسع الرائي أن يلاحظ عريه الفاضح وردفيه الشبيهين بحجرين قاتمين، لا يقيه من

اللهيب سوى فردتي حذاء قديم لم تتمزق بعد، كانت الأشعة الحارقة قد جففت جسدينا من العرق وكوتنا كياً، ونحن رغم ذلك نسير بغير نظام أو أمل كالعميان. وبمجرد أن اقتربنا من شجرة طلح ضخمة أسرع أبي باتجاهها وارتمى على ظلها كالميت، ثم حرّك شفتيه الجافتين بعسر، وبالكاد سمعت صوته الخائر وهو يشكو ناظراً إلى السماء:

ـ عطشان يا ربنا الرحيم. لا أطلب منك شيئاً سوى الماء.

أما أنا فقد تصلبت مفاصلي، ولم استطع الانحناء والجلوس لفرط التعب، فأدرت عيني في المكان، ثم خفضت بصري بيأس وقلت بصوت متقطع:

ـ لا أثر للمساكن.

ـ مثل هذه الشجرة لا تنبت من تلقاء نفسها، شخص ما زرعها هنا. الطلح ينتشر قرب القرى، لأن الناس لا يستغنون عن الحطب والأخشاب.

قال أبي ذلك وزحف بضعف حتى أسند ظهره إلى جذع سميك خشن مغطى بالصمغ وقشور اللحاء وأسراب النمل السوداء، ومكث هكذا مرخياً قدميه وكأن لا شيء يشغله. دخت لفرط الوقوف وأظلم النهار في عيني وسقطت مستلقياً على الأرض، وغشاني عرق غزير، وشيئاً فشيئاً انقشعت عتمة بصري، وشعرت ببعض التحسن. ولم يكلف أبي نفسه حتى بالسؤال عن حالي، كان صوت أنفاسه يتصاعد باضطراب، ومن موضعي رأيت عصفوراً يزقزق على غصن مرتفع محركاً رأسه الصغير دون ملل، تأملت زغب بطنه الصُفْر وريشه الداكن، وغمرني

الارتياح. وفكرت أن العصافير مازالت تعيش في ذلك القفر الموحش، وأسلمني هذا الشعور إلى غفوة بددها فجأة صوت أبي الطافح بالغضب:

ـ زيد، انهض، ليس هذا وقت النوم.

ـ لم أرتح بعد.

ـ هيا..

وتقدم ذارعاً الأرض الحارة بخطوات جادة، فقمت متثاقلاً، واجتزت بضع خطوات كسولات، وشعرت بالتهاب حاد في عيني، وكل ذلك بفعل السهر، حيث بقيت في الليلة الفائتة يقظاً أصارع القرود وأحرس جسده الذي غرق في غيبوبة شاملة، لم أجرؤ أن أوضح له الأمر، كان يغذ الخطى ولا يكلف نفسه عبء الالتفات إلى الوراء، ولو فعل ربما لاحظ شيئاً ما على ملامحي المرهقة، لكن البرية أيضاً لا ترحم، والبقاء فيها يعني الفناء المحتوم، كان هذا واضحاً، ولكني كنت بمنتهى الإجهاد، ويعوزني قليل من الراحة. خشيت أن يتركني ويذهب، لكنه لحسن الحظ توقف فجأة، ورأيته يمعن النظر في شيء ما يلوح بعيداً واضعاً راحته فوق عينيه ليحتمي من الأشعة، فتسنى لي أن أدركه، وسمعته يقول بصوت متهدج مشيراً بإصبعه:

ـ شيء ما يلمع هناك! هل تراه يا زيد؟

شاهدت بالكاد لمعان معدن أبيض منعكسٍ في الجو، كان ذلك الشيء بعيداً جداً، لكني رأيته رغم التهاب عينيّ الساهدتين، بدا وكأن أحدهم ممسكٌ بمرآة، يصوبها نحو الشمس، فقلت بفتور:

ـ معدن مهمل ملقى على الأرض.

ناولني المخلاة، ورمقني بنظرة قاسية، قائلاً بثقة:

ـ اتبعني أيها الجاهل، لنرى حقيقة ذلك البريق.

أمسكت المخلاة بغضب، وكدت أن أصرخ في وجهه، لأنه لم يلحظ مدى إجهادي ليُحملني المخلاة، لكنها غدت أخف وزناً مما مضى، وأنا لم أعد أستطيع أن أحمل جسدي، فحبست كلمات غضبي في أعماقي، وكذلك كتمت عنه أن تلك القطعة اللامعة تبدو كصفيحة سمن فارغة تقبع على سطح أحد المنازل، لا أدري كيف لم يفطن إلى ذلك! رغم أن سطوح منازل قريتنا مكتظة بمثل تلك الصفائح، كل تلك الأشياء تحوي نبتات زينة أو نعناع أو بسباس. لكنها هنالك مقلوبة في مواجهة الشمس، وكأن أرباب المنزل لم يقرروا بعد أن يضعوا عليها نبتة أو شجيرة. لم أتخيل أن يكون لها وظيفة أخرى غير احتواء النباتات المنزلية. تصورت أنهم كسالى مخبولون، ولن أقبل أي نقاش في هذا. وأتى صوت أبي الجهور:

ـ هل توافقني بأن ما يلمع هو زجاج نافذة؟

قلت متحاشياً إغضابه:

ـ نعم، إنها كذلك أو صفيحة سمن فارغة.

ـ بل هي نافذة منزل.

صحت بصوت باكٍ:

ـ مهما تكن، لا أستطيع الوصول إليها.

وجثوت على الأرض منهاراً، كانت التربة والحصى تحرق أعضائي التي لامستها، فارتد أبي صوبي وهو يصيح:

ـ ماذا جرى لك؟ اصمد يا زيد، إننا نوشك على الوصول.

ـ ....

قرفص إلى جانبي، وأخذ يحثني على النهوض بشتى الطرق حتى لم يعد يجد ما يقوله، فأخذ يتفحص قدمي المخدرتين، وحين نزع الخفين القذرين عن قدميّ فاحت رائحة مقززة من الصديد والدم والعرق، فاستقام متبرماً راسماً على قسماته تكشيرة حنق واشمئزاز، وتكلم بشيء غير مفهوم عن حظه السيئ، ثم أطلق بعض الشتائم واللعنات، وهو يعيد الخفين إلى القدمين المتقرحتين، وما لبث أن رفعني إلى ظهره وهو يصيح بغضب:

ـ يشهد الله أني متعب أكثر منك، هل ينبغي أن أعيلك وأحملك طول العمر؟

وسار مترنحاً شاكياً، ومن حين لآخر، يوشك أن يلقي بي عن ظهره، ثم يتراجع عن قراره، ولو فعل ذلك كان أهون علي من كلامه القاسي، لقد أفاض عليّ كثيراً من الهموم، واستعاد الكثير من الذكريات القديمة، منذ كنت عدماً ثم فكرة غبية حسب وصفه لمعت في رأسه وألحت عليه بالحصول على مولود يحمل اسمه، ثم تحدث عن المجهود المضني الذي بذله قبل أن يقذف نطفته القذرة في رحم أمي، ثم انتظاره وقلقه ونفاد صبره طوال فترة حملها، وهلم جراً، إلى أن

خرجت إلى الدنيا بعد عناء شديد، وذكر أنه لم ينم في ساعات المخاض حتى سمع صوت بكائي المزعج حسب وصفه. ولا ينكر أنه شعر بالفرح، وليته لم يفرح. لقد توسم مني القليل من النفع بعد أن كبرت، وعوضاً عن ذلك هاهو يحملني على كاهله المتعب وكأني طفل عاجز. وأكثر في القول حتى أوشكت على البكاء وتمنيت لنفسي الهلاك. وصرخت وضربته على رأسه وكاهله بقبضتي المكورتين، وطلبت منه أن يرميني عن ظهره، ويمضي حيث يشاء. لكنه لم يتوقف أو يوقف ثرثرته البتة، بل كان يقابل صراخي وضرباتي بمزيد من الهياج والصراخ والسير السريع. كان يزداد قوة وعنفواناً مع ارتفاع حدة غضبه، لم أفهم ذلك إلا بعد حين. لم يخطر ببالي أن هياجه كان يغذي قدرته على السير، ويزيده إصرارا وتحدياً. كان الغضب هو وقوده المحرك، بحيث انطلق راكضاً صارخاً كالمجنون، قاطعاً مسافة شاسعة من الأرض، كنت أشعر بضغط يديه القويتين الملفوفتين خلف جذعي، وصار مؤخر عنقه يرشح بماء دبق كالودك المترسب على القدور بعد وجبة لحم دسمة، وهذا ضاعف من انزلاقي عن ظهره، وصرت أجاهد للبقاء ثابتاً على كاهله الصلب موقناً أنه لن يلقي لي بالاً فيما لو سقطت.

ومر الوقت أسرع مما توقعت، بحيث مالت الشمس في السماء، واعتدل الجو، وانخفضت الحرارة، وحال لون الأفق البعيد إلى صفرة مشوبة باحمرار طفيف، أخيراً لاحت أمامنا سلسلة من حجرات متلاصقة وضيعة مبنية بشكل دائري، وتبدو وكأنها مخازن للحطب أو زرائب للحيوانات، وظهرت صفيحة سمن على حافة إحدى الحجرات ، مائلة باتجاه السماء، وتبدو فارغة بوضوح، وسمعنا طنيناً شديداً

يصدر عن قفائر نحل تحيط بالمكان من جميع الجوانب وكأنها جدار غليظ محكم الإغلاق، باستثناء فرجة صغيرة تشبه الباب، هي المنفذ الوحيد الظاهر المؤدي إلى فناء دائري يتوسط تلك الغرف، فاقتحم أبي تلك الفرجة، قاذفاً بي جانباً كشيء مقزز عالق على ظهره، وسقط على الأرض جاثياً على ركبتيه، وهو يلهث مثل كلب صعد مسرعاً إلى قمة جبل عالٍ، وما لبث أن سقط على الأرض كالميت.

الفصل السابع

شعرت بلسع مؤلم في وجهي وأطرافي، فصرت أضرب بكفيّ الواهنين في الهواء، لكن الحشرات لم تتراجع، ونبح جرو صغير من بين الحجرات، فأقبلت امرأة وفتاة صغيرة مهرولتين ناحيتنا، ولاح في كف الأولى كوب من الماء، رشت به وجه أبي، ثم ساعدته على النهوض وأسندته إلى جسدها وسارت نحو حجرة جانبية مفتوحة، ورأيت نفسي ممسكاً بكف فتاة غريبة، تبدو كملاك يمشي بقدمين، كنت خجولاً إلى أقصى حد، غير معتاد على صحبة الفتيات، فذلك لا يمكن أن يحدث في القفر الأعلى، بدافع من الحشمة والتقاليد، لذا انشغلت بمراقبة أبي وهو يمشي عارياً مترنحاً مستنداً إلى جسد امرأة ريانة الجسد أكثر شباباً وخفة من أمي، ولم يعترني أدنى شك بأنه مازال غائباً عن الوعي، أو دائخاً على الأرجح، بحيث يسير ملتصقاً بامرأة غريبة دون أن يبدي أي مقاومة أو خجل، وأعرف أنه فيما لو طلب منه أن يختار بين مرافقة أسد جائع أو امرأة غير أمي، سيختار الأسد، كما عجبت من جرأة تلك المرأة وابنتها، بحيث تقودان شخصين مجهولين إلى منزلهما، لم أفهم شيئاً، سوى أن طاقتي الحيوية لم تعد تعمل.

كان أبي يبدو مشوشاً فاقد الشعور عندما ألقت به صاحبة المنحل على الفراش، وبعد قليل عادت وهي تحمل آنية متوسطة تحوي شراباً ساخناً داكن اللون، وسقته منه، وهو فاغر فاه باستسلام كطفل رضيع،

حتى فرغ الإناء، ومازال يهز شفتيه ويمصهما وكأنه ينتظر المزيد. ما جعل المرأة تلتفت ناحيتي وتقول جازمة:

ـ يا ويلي، أنتما تعانيان من الجوع والعطش.

وافقت بهزة صادقة من رأسي، عاجزاً عن النطق، فقد كانت شفتاي جافتين مطبقتين وكأنهما ملصقتان بالصمغ، ولساني أضحى جافاً خشناً كقطعة بالية من الأسفنج.

ـ يا ويلي، تبدوان شاحبين كالموتى.

وخرجت وابنتها، وجلبتا المزيد من نقيع العسل والقهوة، وفطير العدس، ورمت لي ملابس قديمة تخص ابن لها يبيع العسل مع أبيه بمكان ما، فارتديت بنطالاً رمادياً غريباً وقميصاً أسود، وفطنت بأن مظهري غدا حسناً، ثم أكلت ألذ وجبة في حياتي، وشربت من النقيع الساخن، فدبت الحرارة في جسدي، وشعرت بكثير من الحيوية، وعادت الفتاة وفي يدها المخلاة التي نسيناها في الخارج، وألقت المرأة نظرة على محتوياتها قبل أن تعلقها على المشجب، ثم أطلقت ضوء سراج إضافي، ليتسنى رؤيتنا جيداً، وقالت تخاطبني بصوت متقطع:

ـ لديكما في المخلاة مصباح يدوي ومسدس ورصاص.

قلت بخجل:

ـ نعم، لقد كان سفرنا طويلاً.

ـ أهناك ما يستحق أن تهلكا من أجله؟

لم أفهم ما تعني، لكني تكلمت عما حدا بنا للمجيء إلى هناك، وفي جزء من الحديث امتقع وجهها فجأة وقاطعتني قائلة:

ـ يا ويلي، أهذا هو والدك جعفر؟

ـ نعم، أتعرفينه من قبل؟.

ـ لا تهتم. أرني قدميك يا بني.

شعرت بارتجاف راحتها وهي تدهن قدمي المتقرحتين بمادة غريبة، ولما انتهت لفتهما بقماش نظيف، وما لبثت أن ابتسمت، وطلبت مني الاستلقاء والراحة، كان أبي يشخر بصوت غريب، ما دعاني لأسألها بارتياب:

ـ أهو بخير؟

ـ إنه نائم، ألا تسمع شخيره؟

وغمرني شعور بالرضا والهدوء، ونمت نوماً عميقاً حتى الصباح.

أما أبي فقد فتح عينيه قريباً من الفجر كما جرت به العادة في منزلنا، وشعر بأنفاس ناعمة تصدر عن شخص نائم إلى جواره، فجلس بالكاد، ومد أنامله وهز جذع المرأة النائمة إلى جواره، والتي يظنها أمي، وصاح بصوت منفعل:

ـ ألا تفيقين يا أمة الرحمن للصلاة؟

تحرك جسد المرأة، وسمع صوتاً غائراً غريباً:

ـ لم أطلب منك أن توقظني في هذا الوقت.

ـ ألا تصلين؟

ـ لا.

ـ هذا غريب، ماذا يجري؟ أين أنا؟

ـ ...

وحاول عبثاً أن ينهض، وتذكر بعض ما جرى في الأمس القريب، فصاح بغضب:

ـ زيد، أين أنت أيها الخبيث لتنظر ما جرى لي بعد أن حملتك على ظهري ساعات عديدة؟

لم أسمع نداءه، كنت أغط في سباب ثقيل، وسمع صوت صاحبة المنحل بوضوح:

ـ دع الولد وشأنه، إنه متعب.

سمع ذلك، وساوره الشك مرة أخرى بأنه في منزلنا بالقرية، كانت أمي تردد مثل هذا الكلام، كلما اعتزم أن يأخذني إلى صلاة الفجر، ورغم هذا الصوت الغريب، استبعد أن تنام إلى جواره امرأة أخرى غير امرأته، ومكث هكذا مغموماً حتى شع نور الصبح، وحين ذلك رأى تلك المرأة تستيقظ، وراقبها بتوجس وحذر، كان طيفها يتحرك وسط الحجرة المعتمة، ثم ما لبثت أن فتحت باب الحجرة للضوء والهواء، فأجفل بشكل ملحوظ وهو يرى وجه امرأة مجهولة، وظن أن ذلك من

صنع الشيطان، فاستعاذ بالله من شرّه، ثم قرأ بعض الآيات التي تعلمها، محدقاً فيها بخوف، ثم بصق باتجاهها وهو يشير بإصبعه محذراً:

ـ لن تخدعني أيها الشيطان كما فعلت ببعض المؤمنين الضعفاء، فأنا فقيه من عائلة يئست منها الشياطين.

وقفت المرأة تراقبه بهدوء غريب، ثم سألته بعجب:

ـ هل أنت بخير يا أخي؟

لم يتوقع أن يسمع هذا من الشيطان، وأحس بالحيرة، فقال:

ـ من أنتِ إن لم تكوني شيطاناً؟

ـ أنا امرأة صاحبة المنحل، ينبغي على ولدك زيد أن يشرح لك الأمر، ريثما أطهو شيئاً للفطور..

كنت أسمع هذا الحوار، وأشعر بكثير من الخجل، ليس بفعل كلام أبي البغيض، ولكني أيضاً شعرت بانتفاخ هائل في تقاطيع وجهي ناجم عن لسعات النحل، بحيث زاد حجم الخدين وأوشكا أن يغلقا عينيّ، وأدركت أن شكلي يبدو قبيحاً مضحكاً، لهذا كافحت لأبقي وجهي تحت اللحاف أكبر مدة ممكنة، وصرت أتحرك في موضعي متململاً، مخنوقاً بفعل الحرارة، لكن صوتها أتى ليخرجني من موضعي.

ـ اخرج رأسك يا زيد، فهذا أمر يحدث هنا على الدوام، وسيزول الانتفاخ بعد يومين، اتبعيني يا هند..

وابتعدت المرأة وابنتها، فاختلست النظر إلى وجه أبي المنتفخ والمتجهم، واعترتني فجأة رغبة شديدة في الضحك على مظهره الجديد، فقد غابت عيناه وسط جفنين وارمين، وصار رأسه مثل كرة ملونة تتوسطها ثقوب وردية، ولطخة سوداء وبيضاء بارزة، وتلك اللطخة هي خصلات لحيته الكثة المجعدة، وقد منعني من الضحك عليه أنني على ما يبدو أعاني مثله من الانتفاخ، لكن أبي لم يتمالك نفسه من الضحك، وهو أمر نادر، وقابلته بضحك هستيري، وضحكنا حتى سالت الدموع من عيوننا، وصار أبي يشهق كديك مصاب بالسعال، وبالكاد استطاع أن يقول مشيراً إلى وجهي:

ـ هاهاها. وجهك.. إنه يذكرني بالفطيرة التي تصنعها أمك في التنور، لأنها تضاعف لها الخميرة حتى تنتفخ.

وأدهشني بدقة التشبيه، ولم أجد تشبيهاً مناسباً لوجهه، فقلت أول عبارة خطرت في ذهني:

ـ وأنت وجهك منتفخٌ كمؤخرتي.

وكتم أبي ضحكه فجأة وصاح بغيظ:

ـ ألم تجد شيئاً تشبه به وجه والدك المؤمن سوى مؤخرتك القذرة.

حبست ضحكي مرغماً بعد أن وقعت وسط هذه المعضلة الأخلاقية، فقلت بخجل:

ـ سامحني يا أبي.. لم أقصد...

وخرست، وساد الصمت وشعور الخجل، ولم استطع أن أضيف شيئاً، فنكست رأسي متفادياً نظراته الحارقة، أخيراً قال بصوت متعب:

ـ مازلت صغيراً، وهذا يشفع لك، ولكن يجب أن تدرك أن ملاك السيئات يحصي كل كلمة سيئة يتفوه بها المرء.

انتهى الأمر عند هذا الحد، وهذا جعلني أفرح، فالرجل الغضوب بدا مريضاً في تلك الحجرة، ومتسامحاً بعض الشيء، وتساءلت عما يدعو هذا الملاك إلى مراقبتنا، وعن مقدار ما يحتويه كتابي من سيئات؟ واعتزمت أن أنتقي كلماتي جيداً قبل أن أنطقها، وفكرت أن أبي لا يلتزم جانب الحذر فيما يقوله، فحين يغضب ينثر عشرات الألفاظ القبيحة، ولا شك أن كتاب سيئاته ممتلئ حتى آخره، لم أجرؤ أن أخبره بهذا، وبدأت أشعر بالضيق من البقاء إلى جواره في تلك الحجرة، بدا لي وكأنه يتهيأ لإلقاء موعظة طويلة، فنهضت متعللاً بأني في طريقي إلى الحمام، ولكنه طلب مني الانتظار لأنه يرغب في الذهاب للاغتسال، وينتظر عودة المرأة لتقوده إلى هناك، وأفصح بأن أعضائنا غدت متسخة ورائحتنا مؤذية، ولا ينبغي أن تشعر صاحبة المنحل وابنتها بأي سوء من رائحتنا، وأصابني حرصه على النظافة بالعجب، فهو لا يغتسل إلا من أجل التطهر للصلاة، وعرضت عليه أن أساعده، لكنه أخبرني أن جسدي الركيك لن يحتمل ثقله، وأعلن بأن الضرورات تبيح المحظورات، وأن المريض يجوز له ما لا يجوز للأصحاء، لأن جسده يقترب من الموت، ويكون حينئذٍ خالٍ من الشهوات المحرمة. وقام عن فراشه وهو يئن، وسار ببطء مستنداً على الجدار، حتى وقف بباب الغرفة، وسمعته ينادي المرأة كما لو كانت جاريته، ورأيته يلف ذراعه حول كتفيها ويسير متوكئاً على جسدها اللدن نحو باب صغير،

وأجزم بأني لم أره ملتصقاً بجسد أمي هكذا، وتملكني الانزعاج، ثم نسيت الأمر، كان طنين النحل يبعث في نفسي الرهبة والفرح في آن، جلست خارج الحجرة أراقب الخلايا دون أن أجرؤ على الاقتراب منها. وأتى أبي بعد قليل ماشياً ببطء ثقيل، بدت القطرات راكبة على خصلات رأسه، وملابس صاحب المنزل التي وهبته إياها المرأة مبللة ملتصقة ببدنه، كان واضحاً أنه لم يجف بعد، ومهما يكن لا ينبغي أن يطلب المرء بعض الأشياء الخاصة لاسيما المناشف والملابس الداخلية، هكذا أوضح الأمر حين دخل الحجرة. لكنه بدا نظيفاً مشذب الشاربين واللحية، تفوح منه رائحة مسحوق غسيل الملابس، لم يجد شيئاً غيره يفرك به جسده، ولم يتورع أيضاً عن استعمال مقص صدئ وجده في الحمام، ولم يكلف نفسه عبء السؤال عن صاحبه لأن ذلك شأن تافه حسب وصفه.

بدوري اتجهت نحو الحمام للاغتسال، لكن المرأة ظهرت من حجرة بيت النار، ونصحتني ألا أغتسل، لأن الماء سوف يؤذي جروح قدميّ، فشعرت بالخيبة، لكن هند أتت إلي متضايقة، وترددت قليلاً، ثم همست لي بصوت خجول عن نفورها من وجه أبي المتجهم، ومن رائحتي المقززة، وأنها لا تستطيع دخول الحجرة، لأنها أضحت مثل إبط قذر، ورجتني أن أغتسل ليتسنى لنا أن نلعب معاً بعد الإفطار، وأشارت بيدها إلى الجهة الخلفية للحجرة، ونصحتني أن أعصب قدمي بقرطاسين لأمنع الماء من التسلل إلى باطن القدمين. كان وجهها محمراً كحبة طماطم، وكأنها قالت شيئاً معيباً، لكن ذلك الحوار كان فاتحة صداقتنا، فأسرعت إلى الحمام بقدمين مضحكتين تصدران صوتاً تصر لسماعه الأسنان، لكن لحسن الحظ أن لا أحد رآني أو

سمع صوت القرطاسين، فاغتسلت بماء دافئ، وانتهى الأمر بسلام رغم ما رشح عني من أوساخ فظيعة، وانتظرت قليلاً حتى جف جسدي، ومن ثم أزلت القرطاسين البغيضين، وارتديت ملابسي، وانتعلت خفاً صغيراً يخص هند، وعدت إلى الحجرة متسللاً، ودخلت بهدوء، وجدت أبي يتلصص على محتويات الرف المقابل واقفاً باعتدال كأي رجل صحيح البدن، كان جو الغرفة مفعماً برائحة الغسيل، فأطلقت عطسة حادة، وفوجئت به يجفل مبتعداً، ثم طلب مني غاضباً ألا أدخل كاللص دون أن أصدر صوتاً ينبئ بقدومي، لأن هذا من الآداب المعروفة. وادعى أنه يبحث عن مادة عطرية يرش بها ملابسه، ولم أعلق على كلامه، وما لبثنا أن سمعنا وقع قدمين في الخارج، فاتجه كل منا إلى موضعه، وجلس أبي بتثاقل، وهو يرفع صوته شاكياً إلى الله سوء حاله، ويدعوه أن يمن عليه بالعافية، وأن يبرئ أسقام جسده ليعاود الرحيل وراء قضيته.

ودخلت المرأة تحمل خبزاً ساخناً وآنية مملوءة بالحليب والسمن والعسل، وتبعتها ابنتها بترمس القهوة والأكواب وصحن ممتلئ بشطائر العسل الطري، فزحف أبي إلى المأدبة وهو يئن، وتعجبت من حاله، هل هو مريض حقاً أم عقد العزم على البقاء هناك مدة أطول؟ وشرعنا نأكل بأدب جم، ولاح أبي محرجاً أو يتظاهر بذلك، فقد كان يرتدي ملابس صاحب المنزل، ويعيش بمنزله في غيابه، وهذا مما لا تسمح به أعرافنا، وبدا وكأنه يفكر في كلام مناسب يقوله، أخيراً انبرى قائلاً وهو منكس الرأس:

ـ كنا نشرف على الهلاك في البرية، ثم جلبتنا إليكم إرادة الله، بحيث رأينا هنا لمعان صفيحة أو معدن ما.

تبسمت المرأة وقالت:

ـ ليست مصادفة، بل إننا وضعنا هذه الإشارة ليهتدي إليها عابرو السبيل، ورغم ذلك لم يمر مسافر علينا منذ عشنا هنا.

ـ وكيف تعيشون وحيدين في هذا الموضع المقفر؟

ـ لدينا هذا المنحل، والنحل هنا يتغذى على زهور نبات الرا المنتشرة بكثافة في الشعاب القريبة. كما نملك جرواً شجاعاً، وخزاناً كبيراً يحتفظ بمياه المطر، وسيارة تجلب لنا المؤن وماء الشرب النظيف، وننقل بواسطتها جرار العسل إلى أسواق المدن القريبة.

ـ وأين زوجك؟

امتقع وجه المرأة فجأة وردت متبسمة:

ـ هذا سؤال يبعث على الريبة ويقوله في الغالب شخص يفكر أن يقوم بدور الزوج على الفراش.

علق أبي وعلى وجهه هالة من البراءة والجدية:

ـ كما ترين، هناك وحوش كثيرة في البرية، فلا تسيئين فهمي. والرجل يستطيع أن يقهرها ويحمي عائلته منها، كما حميت هذا الفتى من هجمات القرود قبل يومين.

اغتظت من كلامه الزائف وظهر الاستنكار على ملامحي كالشمس، فرمقني بنظرة حادة، فهمت منها أن ألتزم الصمت، فأشارت صاحبة المنحل بكفها إلينا وقالت بسخرية:

ـ انظر إلى وجهك كيف صار بفعل بضع لسعات، فالمنحل علاوة على العسل الذي نجنيه يحمينا من كل أذى، فالحيوانات لا تجرؤ على الاقتراب من المنزل ليلاً. ألم تؤمن بسطوة النحل بعد؟

ـ هذا واضح، لكن الدين ينصح الرجال ألا يفارقون نسائهم إلا في بعض الحالات كالجهاد في سبيل الله أو زيارة الأرحام، وكما ترين، فأنا فقيه عارف بهذا الشأن.

تساءلت المرأة باهتمام:

ـ لعلك هجرت امرأتك وسلكت هذه البرية لأمر هام في الدين. أليس كذلك؟

نفر الدم إلى وجه أبي المتورم، وصاح بنزق مفاجئ:

ـ بل جئت لأزور شقيقتي المتزوجة في قرية المقاهية، ينبغي أن أفعل ذلك، إنها زيارة هامة، ويمكن أن تكون مقدسة أيضاً، لا أعرف ما يدعو الناس إلى الاندهاش.

استجمعت المرأة شجاعتها وقالت بضيق:

ـ كما تشاء، لا تصرخ في وجهي، كما ترى ليس من عادتنا هنا الصراخ أو الغضب، لا شيء في الحياة يستحق أن نغضب من أجله.

وشرع أبي يلقي عليها مواعظ سبق أن سمعتها عشرات المرات، مستهلاً الحديث بالصراع الأزلي بين الحق والباطل والغاية من خَلْق الإنسان في الأرض، فكان كما عهدته يتكلم عما يراه صحيحاً بإيمان مطلق، عن قصص خارقة وتفاصيل هامشية تبعث على الملل

والحزن، وتحلت صاحبة المنحل رغم ذلك بالصبر والهدوء ريثما أنهى كلامه، لحسن الحظ لاحظ أبي أن شطائر العسل تكاد أن تنفد، ولم يكن غافلاً عنها طوال الوقت، فما فتئت عيناه تراقبان الصحن باهتمام، وهو يلقي موعظته السابقة، وأخطأ في آخر المطاف، وبدلاً من أن يقول: إن الله يقول... ، قال: إن العسل يقول... لا تتأخر يا جعفر... لقد أكمل العبارة على شكل مزحة، مشيحاً الوقار عن صوته لينطلي الأمر علينا، وضحكت المرأة وابنتها، وقالت الأولى بجذل:

ـ فعلاً، لا تتأخر، خذ الشطيرة الأخيرة لأن زيد سيلتقطها حالاً..

ونظر إلي بغضب، والتقط الشطيرة وأدناها من فمه المفتوح وخاطبها قائلاً باحتجاج:

ـ تبدين هادئة ولا تبالين بموعظتي، وكأنك سمعتِها من قبل.

ـ لم اسمعها من قبل، كما ترى، لا أحد يمر من هنا.

ـ تريدين القول: نحن مسلمون غير ملتزمين، أليس كذلك؟

ـ لا أدري حقاً بما أجيب عليك.. لكن لا تشغل بالك، كُل شطيرتك ريثما أعود.

وخرجت حاملة معها أواني الإفطار الفارغة، كان يبدو عليها الضيق ونفاد الصبر، فرمى أبي باقي الشطيرة جانباً، وعاد إلى فراشه حزيناً، وكأن أمه ماتت للتو، فاستغليت الموقف، وتسللت خلف هند إلى الجهة الخلفية من الحجرات. وظهرت شجرة جوز كبيرة جميلة الأوراق ذات ظلٍ مديد، ولاحت القفائر متلاصقة على الجدار القريب، والنحل يحوم

بالمكان، مصدراً طنيناً متناسقاً، رأيت مدرهة خشبية متقنة مشدودة للأعلى بحبال سميكة من النايلون، ومقاعد حجرية مصقولة، وبركة صغيرة، وخزان أرضي كبير للمياه مطمور مسقوف بالاسمنت، ولا يثير الانتباه رغم شبكة الأنابيب المعقدة التي تحيط به، وشرع الجرو يتهيأ للهجوم، وخشيت أيضاً من لسعات النحل المؤلمة، فأخبرتني أن الكلب الصغير لن يؤذيني مادمت إلى جانبها، كما أن النحل منشغل بصنع الفطائر والعسل، ونصحتني أن أتخلى عن الخوف، وأنسى أمر الجرو والنحل، لأن الحيوانات والحشرات تهاجم الخائفين أكثر من غيرهم، وأحاطتني بذراعها من خصري، فشعرت بملمس جسدها الصغير الرخو، وهي تضمني إليها وتقودني إلى المدرهة، وهذا شغلتني عن أي خطر، فتملكني الخجل عوضاً عن الخوف، فابتعد الكلب وهو يئن بيأس، فيما بقي خطر النحل قائماً، لكني لم أشعر سوى بمعصمها الذي يطوقني، رغم أن تصرفها هذا بدا طبيعياً خالياً من الخبث، لكن لم يسبق أن وضعت فتاة كفها في جسدي، وقد تضايقت وانتابني ـ يا لحماقتي ـ إحساس بالعار، وحاولت أن أتملص منها، لكنها لم تتركني أفعل، حتى عندما جلسنا على الخشب العريض، وتأرجحنا في الهواء، التصقت بي أكثر، فازداد إحساسي بالخزي، ولم استطع أن أفعل شيئاً أثناء التأرجح سوى التمسك بالحبل المشدود لكيلا أسقط. وفي البداية لم أحس بأي متعة، ونضح جسدي عرقاً غزيراً بلل ثيابي الجديدة، وكان باطن كفي ينزلقان، ثم فكرت بأمر النحل، فهان علي أمر الفتاة وتجاهلت كفها التي تطوقني وصرت أضحك بابتهاج، وأمد قدميّ في الهواء، ولعبنا ملياً حتى دُخْنا. ثم تسلقت الشجرة، وكنت ماهراً في التسلق والتدلي على فروعها السميكة، وقفزت من موضع إلى آخر بخفة ولياقة، وقمت بحركات خطيرة مدفوعاً بإثارة إعجابها،

وسرني سماع تأوهات دهشتها وآهات خوفها الشديد، وكدت أن أنزلق إلى الأرض وأهشم جسدي أكثر من مرة، فكانت تطلق صرخات صغيرة مكتومة وتغمض عينيها، ثم تُخَبِّئ وجهها بين راحتيها حتى لا ترى مشهد ارتطامي بالأرض، وحين لا تسمع صوت سقوطي ترفع بصرها وعلى ملامحها تكشيرة هلع وعتاب، وفي النهاية طفرت الدموع في عينيها، وهربت عبر الممر. وتركتني وحيداً. فنزلت شاعراً بالأسى، وجلست على المدرهة وأخذت أتأرجح ببطء يناسب الموقف، وفي صدري تحركت حرقة حادة تدفعني للبكاء.. ماذا جنيت؟ كنت أحاول أن أسليها وحسب. قلت هذا لنفسي المثقلة بحمق الفتيان الصغار المغرورين. وقررت ألا أكلمها البتة..

وأتت أمها أسرع من لمح البصر وهي تسير خلفها حثيثاً، فألتفت صوبهما بوجهي المهان المتجهم، ثم أشحت وجهي بعيداً، فضحكت الأم لتهدئ من التوتر المحيط بالجو، ودنت مني حتى شعرت بدفء ثدييها على ظهري، فمسحت بأناملها على رأسي وقالت بصوت هادئ مشيرة إلى ابنتها:

ـ إنها تخاف عليك من السقوط.

أثّر كلامها في نفسي وأرضى غروري، ومع ذلك لم أشأ أن أتنازل بسهولة فقلت بحدة:

ـ كانت ستخبرني بذلك بدل أن تشكوني.

ـ كما ترى، مازالت صغيرة، ولا تعرف كيف تتصرف. بالكاد تعرفت على فتى لتلعب معه، ولا تريد أن تخسره. هيا تصالحا وانسيا ما حدث.

بدت تلك المرأة مختلفة عن النساء اللواتي عرفتهن، رقيقة أكثر من أي امرأة في قريتنا، وصدر صوت أبي عالياً وهو يسأل ما إذا حدث شيء ما، فقلت متوسلاً:

ـ لا تخبريه بأي شيء.

ـ لن أخبره، أعدك بذلك، لكن لا تصعدا إلى الشجرة ثانية.

وذهبت متعجلة وتركتنا وحيدين، فمكثنا صامتين وكلانا ينتظر معجزة تعيدنا إلى سابق عهدنا، وفجأة وقعت نحلة طائشة في عنقي، ولسعتني، فصرخت، وعندها هبت إلى نجدتي، فنزعت دبوس الحشرة، وطلبت مني أن أتأرجح قليلاً حتى يزول الألم، وأخبرتني أن النحلة تموت بعد أن تلسع، وكأنما يقتلها الحزن والشفقة، لكنها لا تتسامح مع أي كائن يقترب من خليتها، وقد تضحي بالآلاف منها في سبيل إبعاده. وفي كل خلية ملكة تشرف على سير العمل، وعندما تتعرض الخلية للغزو تتكاثف النحلات حول الملكة على شكل عنقود ضخم لتحميها، وهكذا أخذنا الكلام إلى أجواء أسطورية من المعارك والنظام بين ممالك النحل، ورغم ما يجري تكون الحصيلة النهائية هي العسل، ومهما كانت الظروف سيئة لا تكف هذه الحشرات عن إنتاج هذا السائل اللذيذ الباهظ الثمن، وقد تقطع مسافات طويلة بحثاً عن مكان مناسب هادئ تتوفر فيه المياه والأزهار، وأخبرتني أن تلك البرية الحارة المعزولة المكتظة شعابها بأزهار شجيرات الرا هي أنسب موطن للنحل،

وعرفت بأن الإنسان وآلاته وصراخه ومبيداته هي أكبر عدو لتلك الحشرات المفيدة، وأدركت حينها كيف تسنى لهند الصغيرة أن تقضي أيامها الماضية دون رفقة.

فرغم الطقس الجاف الحار ووحشة البرية، فإن السعادة التي شعرت بها هناك لا يمكن وصفها، ولو خيرت أن أتنازل عنها مقابل الفردوس الموعود لن تطاوعني نفسي على تركها. لكن أبي مخلوق مشئوم بطبعه، خلق للحزن والمنغصات، فلا يعيش سوى في جو من النكد والفوضى، لذلك لم يسره أن يراني سعيداً ألعب مع تلك الفتاة عند الشجرة، كان مازال يتظاهر بالضعف والعجز، وكل ذلك من أجل أن تساعده صاحبة المنحل البضة، فتقوده إلى الحمام أو إلى أي مكان يريده، كانت تفعل ذلك بدافع من الشفقة والعطف على رجل عاجز، وكذلك بفعل رابطة الدم بينهما، ولكن يا له من ماكر متطلب لا يني عن استغلالها والالتصاق بجسدها كالغراء، كنت أشاهده يفعل هذا باستمرار، يناديها وكأنها خادمة يدفع لها راتباً كبيراً من أجل هذه الغاية، فكانت تتحلى بصبر عجيب في خدمته، رغم فظاظته وكثرة مطالبه. أدركت في النهاية السبب الحقيقي الذي يدعوها إلى خدمته وتحمل مشاكله، اكتشفت كذلك أنه كان في غنى عن المساعدة، وأن بمقدوره أن يركض كحصان سباق، ومع هذا كان يحب أن يكون معها وحيداً، ولكنه وفي الوقت ذاته لا يريد أن أغيب عن عينيه، فوقع بين هذين الأمرين المتناقضين، كانت هند لا تفارقني، فأمسى يتضايق وهو يرانا نلعب سوياً في الحجرة، وكلما انفرد بي يهمس لي ناصحاً بأن أتجنب مرافقة تلك الفتاة واللعب معها، لأن ذلك لا يجوز، ويخبرني عن غضب الله، ويذكرني بتقاليدنا في القفر الأعلى، وعن أشياء سخيفة

أخرى لا أفهمها، ولكن رغبتي في صحبة هند كانت تتفجر في أعماقي كالبركان، كانت من القوة بحيث أكسبتني مقاومة شرسة لنصائحه الغريبة، حتى بلغت حد مواجهته ذات مرة، فقلت له بصرامة بأن يدعنا وشأننا، وأن يكف عن ادعاء المرض، وتعمدت أن أرفع صوتي عالياً في الجزء الأخير من القول، ما جعله يصيح هامساً بغيظ:

ـ اسكت أيها البغيض، افعل ما شئت، لا شأن لي بك، سأنسى أن لدي ولد اسمه زيد.

وكتم غيظه في صدره مرغماً، وتركني وشأني، وفي اليومين الأخيرين صرت أراه يكثر من الصلاة، ومظاهر الورع، وساورني شعور مريب حيال ذلك، لكني أشحت هذا الشعور عندما عجزت عن فهم ماهيته. كان الأسبوع قد مضى، ودخل يوم جديد بهيج كالعادة، وحاول أبي أن يعكر هدوء ذلك المساء اللطيف الهادئ، فأبدى جزعه أثناء العشاء من ظهور رب المنزل المفاجئ، ليجد رجلاً غريباً ينام على فراشه قرب امرأته، كانت صاحبة المنحل قد أخبرتنا في الليلة الماضية أن موعد أوبته قد حان، وأنه بين لحظة وأخرى سيصل ومالك بالسيارة التايوتا، وأفصحت بأنه رجل طيب ولن ينزعج من وجود ضيفين في منزله، بل سيفرح عندما يرانا، ولن يفتعل أي ضجة حتى لا يوقظ النائمين، وسيفترش له موضعاً في الحجرة، وإن لم يجد مكاناً هناك سوف يلقي جسده في السيارة أو بإحدى الحجرات المخصصة لجرار العسل، وأكدت أن نوم المرأة قرب الضيف غير مستهجن في تقاليد الناس هناك، وهي عادة قديمة راسخة تنم عن أعلى درجات التقدير لشخصه الكريم. ولا يقصدون في هذا إحراجه أو إذلاله، وينبغي على الزائر الغريب أن يحترم التقاليد، ويتحلى بالصبر

وسعة الصدر، لاسيما إن كان هناك حجرة وحيدة للنوم كما هو الحال في معظم منازل السكان المحليين.

ولم يكن أبي مقتنعاً بمثل هذا الكلام الغريب، ورغم ذلك لم يعترض على شيء مما قيل، واكتفى بالتجهم. وكنت في سريرتي ألتمس لأبي العذر، فهو قبل كل شيء فقيه تلقى تربية دينية متشددة مطعمة بتقاليد سكان الجبال العالية، وهؤلاء مازالوا ينظرون إلى أي امرأة تقف لتتحدث ورجل على الطريق بأنها عاهرة، وقد حدثني صبيحة اليوم التاسع والأخير عن مهمتنا المنتظرة، واتهمني بالاستكانة للعيش في ذلك المنزل الفاجر، قرب فتاة تبدو لعوباً مثل أمها، ووصف السكان المحليين بالمنحرفين، وصاحبة المنحل بالمرأة سهلة المنال التي تنام على فراش الغرباء. وصب لعناته على تقاليدهم، واعتبرها مروقاً عن الفضائل التي أتى بها النبي محمد.

فقلت منافحاً عن المرأة وابنتها بإخلاص:

ـ هذا غير صحيح، إنهما طيبتان، وليس لهما مكان آخر تنامان فيه. وقد اقتسمتا معنا الحجرة لهذا السبب فقط.

همس بنزق:

ـ ألا توجد حجرات أخرى بالجوار؟

ـ نعم، هناك حجرات يخزنون فيها جرار العسل ولوازم المنحل، وقد رأيتها بنفسي مكتظة بها.

تلفت حوله بحذر، وطلب مني أن أدنو منه، وهمس في أذني:

ـ دعنا نذهب يا بني، لقد راودتني المرأة في الليلة الماضية عن نفسي، فامتنعت عنها، هل تصدق ذلك؟

لم أفهم ما يرمي إليه، وهمست بحيرة:

ـ ماذا كانت تريد منك أن تفعل يا أبي؟

صنع بيده حركة بذيئة واسعة الانتشار بين فتيان قريتنا لاسيما المراهقين، وقال بنبرات حادة:

ـ يا لك من غبي، لا أصدق أنك لا تفهم ما هو الزنا، لا بد أن نرحل قبل أن نقع في شباك المعصية.

وران الصمت، إذ لم أجد شيئاً أقوله، فأعقب سائلاً:

ـ وأنت يا زيد، هل طلبت منك الفتاة شيئاً كهذا؟

ـ لا..

وهممت بالفرار من أمامه، كنت قد فهمت ما يعني بطريقة ما، ولم أجد في نفسي ميلاً للفهم أو السماع، وكأن الأمر لا يعنيني في شيء، وأتت فرصة الهروب عندما دخلت المرأة إلى الحجرة، فخرجت وهند ناسياً كل ما سمعت، ولعبنا مع الجرو، الذي غدا محبوباً للغاية، وكان اللعب على أشده، لا شيء يدعو للسأم قرب هند وجروها ونحلها ومدرهتها وشجرتهم الرائعة، ورغم مزاولتنا للألعاب نفسها، التأرجح واللعب مع الجرو، والركض حول المقاعد خلف الفراشات والنحل، ابتكرنا لعبة أطلقنا عليها اسم من يمسك بالآخر هو الرابح، فكنت أرتمي على هند لأمسكها، وهي تقذف نفسها وتمسكني، ثم نسقط متعانقين على الأرض

غارقين في ضحك شديد، دون خبث أو نزوع للمداعبات غير البريئة، ولو رآنا أبي كما أظن لن يتردد وهلة عن المطالبة بإقامة حد الزنا علينا، وطالما كان يردد إنه ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، ولكن ثالثنا كان الفرح، ولكنه سوف يضعنا بمنزلة البالغين دون شك، لأن مزاج الفقهاء المتزمتين كان يغلب على أحكامهم، ولكن لحسن الحظ أننا كنا نلعب بحرية تامة، وحيدين دون رقيب، ثم جلسنا أخيراً على المقعد لاهثين لفرط التعب، ثم قمنا إلى البركة، ومكثنا نتأمل أسراب النحل وهي تأتي لتشرب الماء، وصرنا ننقذ من تسقط بواسطة عصا طويلة، ونراقبها وهي تطير مبتعدة نافضة رذاذ الماء عن أجنحتها المبللة، وأثناء ذلك كنت أحدثها عن عائلتي وإخوتي، لاسيما محمد الملقب قرد القرية الذي علمني مهارة تسلق الأشجار، وتلك الحركات التي أغضبتها... فجأة سمعنا صرخات غاضبة متتالية، كان صوت أمها مميزاً واضحاً، وكأنها تقاوم شيئاً ما، فهرولنا عبر الممر، واتجهنا صوب الحجرة التي يصدر منها الصوت، وعندما وصلنا رأينا المرأة مشتبكة وأبي في صراع غريب، كان مستلقياً فوقها يحاول أن يسيطر على جسدها، سمعته يصفها باللعوب، ويطلب منها التوقف عن المقاومة، وهي تطلب منه الابتعاد عنها، ومغادرة المنزل، فتقدمت هند باكية وأخذت تضربه بقبضتها الضعيفة على ظهره، فنهض فزعاً، بوجه محتقن قاسٍ لم أر مثيلاً له من قبل، ودفع الفتاة عن طريقه بقسوة، حتى ارتطمت بي، ثم أصلح من وضع ملابسه المبعثرة، وأخذ يتحرك لاهثاً في أرجاء الحجرة باحثاً عن شيء ما، دون أن ينظر إلى أحد، ثم تناول المخلاة بطريقة خشنة، وتفل في وجه المرأة، ووجه إليها كلاماً نابياً، وغادر للتو صائحاً دون أن يلتفت إلي:

ـ اتبعني يا ولد، لا مكان لنا هنا مع هاتين الفاسقتين.

تجمدت بموضعي مندهشاً، غير مستوعب للأمر، كانت المرأة ترتعد بشدة، ورأيتها تحاول النهوض وهي تبتسم بصعوبة. وحين انتصبت رفعت سروالها للأعلى، وأصلحت من حالها، ثم اقتربت من ابنتها وضمتها إليها قائلة بتلعثم:

ـ لا تخافي، لم يحدث شيء، لقد حاول أن يضربني.

كان وجهها محمراً وخصلاتها منكوشة بشكل فظيع، وثمة عضة على عنقها كتلك التي تركتها القرود على أطرافي، ولاحظت أن قماش ثوبها مشقوق من الأمام، رغم أنها حاولت أن تخفي ذلك، وأتى صوت أبي الصاخب، فحثتني على البقاء في منزلها، باسطة ذراعيها بتوسل، فخرجت من الحجرة مهرولاً، وتبعتني إلى خارج الفناء، وهي تصيح خلف أبي الذي ابتعد عن المنحل:

ـ انتظر يا جعفر، الطريق الذي تسلكه خطير.

ظل أبي يمشي بخطوات عجولة دون أن يلتفت، وبدا وكأنه لا يسمعها، أو لا يعيرها اهتماماً. فتابعت الصراخ دون كلفة:

ـ أختك ليست هناك.

شعرت ببؤس ذلك المكان وعزلته، وعرفت أن ما ذقته من سعادة هناك ليست سوى وهم كبير، وتعجبت من قلق المرأة علينا رغم ما جرى لها، فنحن في النهاية عابرا سبيل مزعجان احتلا منزلها، ويتحتم عليها أن تفرح لرحيلنا، لكنها وقفت تراقبنا باغتمام! في حين

عدوت خلف أبي بأقصى سرعة لأدركه، ثم مشينا صامتين، وصرت استجمع شجاعتي لأعاتبه على سلوكه الفظ، لكنه استهل الكلام قائلاً دون أن ينظر في وجهي أو يتوقف عن السير:

ـ ماذا قالت لك تلك المرأة؟

قلت ببراءة:

ـ أخبرت ابنتها بأنك حاولت أن تضربها.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ لا شيء، لقد حثتني على البقاء.

ـ يا لها من امرأة وقحة!

سألته متجنباً مجادلته:

ـ ألم تسمعها وهي تناديك؟

ـ لم اسمعها بوضوح، ماذا كانت تريد؟

ـ طلبت منك ألا تسلك هذا الطريق.

ـ أهذا كل شيء؟

ـ قالت أيضاً بأن أختك ليست هناك.

ـ دعك من كلام تلك المرأة الخبيثة، كانت ستخبرني بهذا في المنحل إن كانت تعلم بمكانها فعلاً.

تشجعت وقلت:

ـ أليس من الأفضل أن نسلك طريق السيارات؟

ـ اتبعني وحسب، فتلك المرأة ليست ناصحة أمينة، وأخشى أن نصادف زوجها في الطريق، ليس جميلاً أن يرى ملابسه على جسدي. هل تفهم ما أعني؟

هززت رأسي موافقاً، ولذت بالصمت، كان يسبقني بخطوة أو خطوتين مدارياً عني وجهه كشخص خجول اقترف ذنباً، لكنه فجأة توقف كمن اصطدم بشيء مفاجئ في طريقه وقال:

ـ كأني سمعتها تهتف باسمي!

ـ نعم.

ـ هل ذكرت لها اسمي أيها الأحمق؟

ـ لا أدري، أظن أنك فعلت ذلك أثناء الموعظة، ألا تذكر أمر شطيرة العسل؟

ـ على كلٍ، ليس هناك ما يدعو للخوف، لكني أحبذ أن أظل مجهولاً.

وضاق صدري من الحديث عن الاسم، فسألت باهتمام:

ـ أنحن في الطريق الصحيح يا أبي؟

ـ انظر، إنه طريق واضح ممهد للسير، ولابد أن يوصلنا إلى مكان ما.

ـ كم بقى لنا من الوقت للوصول إلى قرية عمتي؟

ـ لا أدري، دعني أفكر قليلاً. لقد رأيت ما حدث، لم تتح لنا فرصة للسؤال عن أي شيء.

ـ لم نبتعد كثيراً، يمكننا العودة إلى المنحل.

صوب إلي نظرة حادة، وصاح بصوت متكبر:

ـ لن أرجع إلى تلك المرأة، لأنها مصيدة نصبها الشيطان لأبيك يا بني، وقد كدت أن أقع بشباكها كما رأيت، ولكن الله أنقذني في النهاية.

ومضى يسبح الله ويشكره بصوت حزين، ويطلب منه الغفران. ثم سكت وأطرق إلى الأرض، وبدا منكمشاً وكأنه واقع في مأزق عويص، ولكن ما إن غاب ذلك المنزل عن نظرنا حتى رفع رأسه، مطلقاً زفرة ارتياح كما لو انزاح حجر ثقيل عن صدره. كنا قد وصلنا إلى تل عريض مكسوة شعابه بنباتات الرا، كانت براعمها البيضاء متفتحة وناعمة رغم الجفاف والحرارة الخانقة، لمحت بعض النحل تحوم حول الزهر الأبيض، فتذكرت بحنين تلك الأوقات الثمينة التي قضيتها وهند تحت تلك الشجرة، ولكن وبما أني مازلت في عمر الأطفال، فعلاقتي بها لم تكن عاطفية، وأظن الأمر لن يتغير فيما لو كانت ذكراً، فكل ما كان يعنيني هو اللعب والتسلية، لكني أيضاً كنت أشعر بجو غريب على طبيعتي ونحن نلعب معاً. فقد كانت رقيقة للغاية، وقد راعها عندما رأت حركاتي الخطيرة على الشجرة، وأجبرتني على محاكاة أسلوبها اللطيف في اللعب، ومع ذلك ألفتها واعتدت على لعبها الرقيق، وأصغيت إلى ثرثرتها باهتمام، كانت المدة التي قضيناها معاً هي ثمانية أيام فقط، لكنها تركت أثراً في نفسي، ومن الغريب أني لم أقلق بشأن لقائها ثانية، وكأن هذا اللقاء بات

محتوماً، وأجزم أن هذا الشعور داهمني وأنا أسير وأبي في البرية وسط وهاد جافة وتلال موحشة، بحيث يبدو أي أمل للعيش ضئيلاً، وهنا ورغم ظهور علامات الشؤم في رحلتنا، بدأ أبي يضحك بصوت عالٍ، فانتابني شعور حقيقي بأنه مس بالجنون، ما لبث أن قال متهكماً وهو يرنو إلى بعيد:

ـ انظر، أترى هنالك صفيحة سمن تلمع؟

لم أحس بالارتياح لتلميحاته المشئومة، وعلى شجرة سدر قريبة ظهرت مجاميع من القرود تأكل الأوراق وتمرح، وعندما رأتنا سمّرت فينا عيونها البنية الصغيرة، ثم أصدرت صخباً حاداً، فأخرج أبي مسدسه العتيق وخاطبني مشيراً إليها بحذر:

ـ لنصطاد واحداً للغداء، فأنا أتضور جوعاً.

قلت معترضاً:

ـ لا تفعل، ستمزقنا عندما يحل المساء، أنسيت...؟

ـ لا يجب أن نموت جوعاً أيها الجبان، لن يضير البرية أن تفقد قرداً ليحيا فردان من البشر.

ـ كيف نأكل قرداً..!

ـ اسكت، راقب وحسب.

وصوب مسدسه الرديء إلى الشجرة وهو يضحك، وتمنيت أن يعلق التربـاس كعادته، ولكن ويا للمفاجأة دوت الرصاصة، وهوى قرد

صغير إلى الأسفل. فهربت القرود مذعورة وهي تعوي كالكلاب الجائعة، فاقترب أبي من الشجرة، وسحب القرد الصغير من ذيله، وسار وثمة خيط من الدم يجره وراءه، فتبعته متفادياً النظر إلى الحيوان النافق، ورحت أراقب بخوف الحيوانات المشتتة في الجوار. كانت تسير مواكبة خطانا، لكنها بدت خائفة وبعيدة. وتوقف أبي تحت شجرة وارفة الظل، وصاح في وجهي آمراً:

ـ اجمع الحطب والأعواد اليابسة.

فأخذت أجمع ما يقع في يدي، كانت الجفاف قد ضرب البرية بسياطه القاسية، وأحال كل الشجيرات إلى حطب، حتى الأشجار الكبيرة شرعت تجف من أسفلها، وتدلت منها فروع جافة سرعان ما تكسرت بمجرد أن جذبتها، واستغربت أن يحدث هذا ونحن في أوج الصيف، وعدت سريعاً وبين يدي حزمة من الأعواد السميكة، فانفرجت أسارير أبي وقال بظفر:

ـ يجب أن تعمل حطاباً يا زيد، فما جلبته يكفي لشواء تيس ضخم.

وأمسك بالخنجر وحز رأس القرد، ثم رماه باتجاه القرود، فأثار ذلك هياجها، وأخذت تقترب بحذر، ويبدو عليها الاضطراب أكثر من الغضب. في طليعة القادمين لاحت بوضوح قردة كبيرة مهتاجة، يتشبث على ظهرها قرد صغير، رأيت في عينيها حدب الأم وفجيعتها وهي تتأمل الرأس المقطوع المفتوح العينين، ولم يدع الخوف مكاناً للشفقة في قلبي، فلذت خلف أبي لأحتمي به وكأنه جدار عازل، كانت لامبالاته وجرأته تفوقان الحد المعلوم، فأخذ يضحك وهو يسلخ جلد القرد رانياً صوب القردة الحزينة باستخفاف، وأعطاني هدوءه هذا

انطباعاً حذراً عن رجل صنديد متحجر القلب واثق بما يفعله، وإن اعتراني بعض الشك بأنه فقد عقله، ويتصرف على نحو أخرق. وما لبث أن أطلق النار عندما اقتربت الحيوانات مكشرة عن أنيابها الحادة، فأجبرها على الفرار إلى حيث كانت. وزاد إعجابي بشخصه المستهتر، فقلت لنفسي: إنه على ما يرام.. وراقبته وهو يشوي القرد بتفانٍ، ويضيف إلى اللحم الأحمر بعض الفلفل والملح، ثم لمعت عيناه بعد قليل، وأعلن عن استواء الوجبة، وراح ينهش قطعة من الجنب بنهم، وثمة رائحة حيوانية تتصاعد وتفوح في الجو، وصاحت الحيوانات وتحركت بعصبية وكأنما صدمت بما رأته للتو، وأنا كذلك صرفت بصري وانتحيت جانباً مقاوماً نوبة من التقزز حلت بي، وصار يرمي العظام جانباً بعد أن يمصها بتلذذ، كانت أصوات مضغه وبلعه تبلغ مسمعي وتصيبني بالقشعريرة رغم جوعي، وتناقص القرد بسرعة عجيبة، لكنه استبقى فخذاً مد به إلي وتجشأ بصوت رافع وقال:

ـ خذ نصيبك قبل أن ألتهمه.

قلت دون أن ألتفت:

ـ لست جائعاً.

ـ لا تكذب، ذُق مضغة واحدة، إنه طيب.

صحت بشدة:

ـ لا أريد هذا اللحم القذر، هل تفهم؟

انتفض قائماً صارخاً بصوت عارم:

ـ اقسم بالله إن لم تأكل لأسلخك كالقرد ثم أشويك.

أقسمت في سريرتي بأنه مجنون، وأني سألقى مصير القرد المسكين إن لم أطعه، فأخذت الفخذ من يده بتوتر، وأنا أتمنى له الموت الزؤام، وترددت وهلة ثم أغمضت عيني وقضمت نتفة صغيرة ولُكْتَها ببطء، وعلى وجهي تلوح علامات التقزز، وفوجئت بمذاقها الشهي، ففتحت عيني وأكلت حصتي حتى احتكت أسناني بالعظم. وقال أبي بصوت متحشرج: بقي الماء يا زيد، عسى الله أن يسقينا من فضله.

وسرنا طويلاً يكاد العطش أن يقتلنا، وقابلنا جو عاصف حار غلفنا بطبقة خشنة من التراب، ولم نعد نستطيع الكلام. وأخرج أبي كوباً من المخلاة وانزوى جانباً، وبال فيه، ثم أدناه من فمه وبلل شفتيه الجافتين، وخيل لي أنه شرب بقية ذلك السائل الأصفر. ثم قدم إلي الكوب الفارغ، فرفضت أن ألمسه، ولم يجبرني على أخذه، بل رماه جانباً وحرّك حاجبيه بلا مبالاة، وبدا أحسن حالاً من ذي قبل، فيما صرت أزحف ببطء كرجل عجوز، وما لبثت أن سعيت بنفسي إلى المخلاة، وأخرجت كوباً جديداً وملت جانباً، وأفرغت ما بمثانتي من سائل قذر، وسكبته في معدتي دفعة واحدة، وشعرت بمذاقه السيئ اللاذع ينتشر في لعابي، فتقيأت، ثم انبطحت تحت ظل شجرة صغيرة شاعراً بدوار شديد، وسال ما بقي في جسدي من ماء على شكل عرق غزير، وقرفص أبي جواري وجعل يلحس جبيني بوحشية غريبة. كان يبدو منفعلاً ومتضايقاً للغاية كما لو كان يخشى أن يضطر إلى حملي كما حدث في المرة السابقة، ولم يكن قادراً على الكلام والتنفيس عن

مكنون نفسه، فصار يزفر بغيظ ويلكزني بأصابعه القاسية عدة مرات دون جدوى، ثم جرَّب أسلوب التهديد، فرفع سبابته في الهواء مهدداً بأنه سيرحل للتو. لحسن الحظ أنني شفيت من الدوار قبل أن يقدم على تنفيذ وعيده، ورأيته بجانبي يحك رأسه بنفاد صبر، شاخصاً إلى الأفق البعيد.

كانت هنالك سحابة صيف سوداء مبشرة تحجب الشمس، ناشرة ظلالاً داكنة على التل، وحين التفت ورآني متأهباً لمواصلة السير أشرق وجهه، ونهض بخفة غزال، ملوحاً إلى السماء بفرح، وعدنا نمشي دون كلام، لكن الجو الداكن منحنا فسحة لتبادل النظرات المعبرة. وعرفت أن أبي كان سيقول فيما لو استطاع الكلام أن العناية الإلهية مازالت تحيط بنا أينما ذهبنا، ولسوف يُقسم بتربة أجداده الصالحين أن مهمتنا محروسة من السماء، ومع مرور الوقت أخذ الجو يكفهر أكثر، وأضحت التلال قاتمة وكأن الليل على وشك الحلول، فشعرت بخوف مريع من قدوم الظلام، على عكس أبي الذي احتفظ بطلاقة وجهه، وأوشك أن يتبسم ويقول شيئاً ما، ولكن دون جدوى، فشفتاه الجافتان المليئتان بالقشور كانتا عاجزتين عن الانفراج، وكأنهما لتمثال حجري، وحين نزلت قطرات المطر الأولى مضى يرقص بانتشاء، ثم انبطح فاغراً فاه. مازلت أذكر ذلك المشهد الفريد المدهش من رحلتنا، فتلك لحظة لا يمكن أن أنساها، حين ذلك عرفت سر نشوته، فشاركته الرقص والفرح، واستلقيت إلى جواره لأتصيد القطرات المنهمرة، لكن المطر ما لبث أن صار غزيراً عنيفاً بحيث تغلغل في عيني وأنفي، وكانت الفائدة منه قليلة. فاهتديت إلى أن أضع الكوبين والإبريق على الأرض، وجلسنا مقرفصين حائرين وسط المطر، حتى نزل وابل

خفيف من البرد، فلذنا بشجرة قريبة، واستمرت السماء تمطر بشدة حتى حل الليل، ولم يعد هناك سوى رذاذ خفيف، فأسرعنا إلى الكوبين والإبريق، ووجدناها ممتلئة بماء بارد عذب، فشربناه حتى آخر قطرة، دون أن نبقي على القليل منه للساعات القادمة، وقال أبي بعد أن ارتوى:

ـ أتعرف ما يدور في ذهني يا زيد؟

قلت بثقة:

ـ نعم. أعرف.

ـ ماذا تعرف أيها الحمل؟

ـ ستخبرني إن الله معنا وإن مهمتنا مقدسة. أليس كذلك؟

ـ لا تبدو ساذجاً كما يلوح عليك. كيف عرفت ذلك؟

ـ أنت تردد هذا طوال الوقت، ولا تفكر بشيء آخر غير ذلك، وكأن الله لا يهتم سوى بالفقهاء. لكن العالم مكتظ بملايين من المجانين غيرنا.

امتقع وجه أبي، وانفجر صارخاً:

ـ لا تسخر من الفقهاء أيها البغيض، لقد أفسد التعليم الحكومي أخلاقك دون شك، وحين نعود إلى القرية سيكون لنا كلام آخر.

ونظر إلي كما ينظر العابد إلى مجسم الشيطان، وصب اللعنات على المدرسة والمعلمين والمنهج الدراسي، وقال إن الشيطان وحلفاءه من النصارى واليهود هم من ابتكروا هذا النوع من العلوم الفاسدة،

وغايتهم هي إغواء المؤمنين وطمس عقائدهم، ولا يعلم إلا الله ما يبغون أكثر من ذلك، وأقسم بتربة أجداده الأولياء أن يدعني أحفظ القرآن عن ظهر قلب، ويجعلني أداوم على حضور الصلوات والدروس في المسجد، حتى لو اضطر أن يقودني إلى هناك مغلول اليدين والقدمين، أو يحملني على ظهره حياً أو ميتاً...

وسكت بعد أن بح صوته بفعل الغضب، ومكث قليلاً يسترد أنفاسه، ثم قال بصوت يغلب عليه التأثر:

ـ ماذا فعلت بك لتحرق قلبي يا بني؟

ـ لم أقصد أن أغضبك. سامحني يا أبي.

ـ أرأيت كيف أنقذنا الله، فأطعمنا وسقانا في هذه البرية المجدبة؟ أليس هذا من فعل العناية الإلهية؟

ـ نعم، الله معنا دون شك.

ـ ومهمتنا مقدسة، وأجدادنا من الأولياء الصالحين، وأريدك أن تكون فقيها عارفاً ورجلاً صالحاً.

لا أنكر أن كلام أبي أثّر بي كالسحر، وجعلني أعترف لوهلة خاطفة أنه رجل حكيم، ثم ما لبثت أن فكرت بأنه رجل خطير كذلك، ولولا غضبه وتطرفه، لصار ملاكاً قروياً يسير على قدمين، لم أدرك بعد ما يدور في نفسه. لقد ذبح قرداً وأكله لإشباع جوعه، ولا يستبعد أن يقتلني ليشبع غريزته الروحية، ومن ثم يبرهن لربه أنه أحب إليه من ولده. وتذكرت أنه مفتون بقصة النبي إبراهيم الذي أخذ ابنه ليذبحه

ويقدمه قرباناً لله، فافتداه الله بكبش سمين، وطالما يردد هذه القصة في كل مواعظه، ولنفرض أن هذه القصة حقيقية، وحصلت فعلاً في عصور سحيقة غريبة حضرت فيها المعجزات، أما في هذا الزمن اللعين فأشك أن يفتديني الله بطائر قبيح المنظر، لذا كنت مجبراً على مجاراة أبي، لأتفادى غضبه. خشيت أن يركبه الجنون فيقدم على ذبحي، لم أدرك بعد ما يجول في ذهنه. لقد تصرف طوال الرحلة بغرابة، وأوشك أن يغفل عن الهدف الذي نسعى إليه، وهو زيارة شقيقته. حتى بات يصفها بالمهمة المقدسة. وقلت لنفسي باغتمام: أيعقل أن يخلع رجل عاقل على زيارة أخته كل هذا الجلال، ويلقى كل هذه المتاعب التي قابلناها! لا شك أن لديه هدف مستور لا يفصح عنه، هل ينوي فعلاً أن يقدمني قرباناً أو يقدم أخته؟

وهكذا تملكتني الشكوك القاتلة، وضاعف صمته وشروده من اغتمامي. كان المصباح اليدوي مضيئاً في يده، وهو يمشي بقوة وثبات، وأنا أقتفي أثر خطواته الواسعة، لأحظى ببعض نور المصباح، وأحياناً أضع قدمي في المجهول، لحسن الحظ كان الطريق مستوياً رغم تعرجه، وهناك ما يشغلني عن التفكير بهذا الشأن التافه. شيء عظيم يتعلق ببقائي على قيد الحياة. وكلما مر الوقت صعب علي أن أسير إلى حتفي الافتراضي دون أن أحرك ساكناً، فقررت أن أتقمص شخص الماكر، ومن ثم أتجسس على نوايا أبي، فقلت فجأة بصوت جاهدت ليبدو طبيعياً:

ـ ستكون مفاجأة كبيرة عندما ترانا عمتي فوزية أمامها.

رد بصوت غائر:

ـ ستفزع لا شك، لكن ذلك لا يهم.

ـ تفزع!

ـ نعم، يا لك من غبي، ألم يسبق أن أخبرتك أنها تزوجت بذلك الفلاح رغماً عن أنوفنا؟

ـ ستخشى أن نؤذها، يا لها من مسكينة.

ـ لقد كانت ميتة منذ ذلك الزمن، لكن ذلك الحلم أحياها لأمر أراده الله. إن كانت حية سألقي عليها نظرة وأعود أدراجي، لا أظن أن بوسعي مصافحتها.

ـ أتود أن تقتلني يا أبي؟

ـ أقتلك! يا لك من رعديد، لست وحدك هنا، إننا ننفذ مشيئة الله.

لم يفهم ما أقصد، فأدركت أنه لا يعتزم التضحية بجسدي، وشعرت بقليل من الاطمئنان، فقلت:

ـ ولكنك لن تكون سعيداً عندما تراها، وهي لن تكون سعيدة أيضاً، ماذا نسمي هذا الأمر؟

ـ سمّه ما شئت، ما أريده هو أن يرضى الله عني.

وعاد الصمت، وعصفت ريح باردة مشئومة، كانت ملابسنا المبللة تضاعف من معاناتنا، وأفصح أبي أن الريح ستقوم بتجفيفها بعد قليل إن استمرت في الهبوب، كان الظلام حالكاً بحيث لا نبصر ما يحيط بنا، ثم ظهر جزء من القمر مع انقشاع الغيوم، فمنحنا ذلك بعض

الأنس والنور، بدت السماء بهية منقوشة بما لا يحصى من النجوم المتلألئة كالفصوص اللامعة، وشكلها المبهر يبعث على الطمأنينة، لكن التلال الصغيرة من حولنا بدت بمظهر رهيب ومزعج، بحيث ظهرت الأشجار البرية على صورة أشباح صامتة داكنة اللون، صدر صوت صرار الليل من مكان قريب، وتوقف أبي عن السير فجأة، وأمسك بي ليحثني على الوقوف، مصيخاً السمع بانتباه، ثم همس أنه سمع صوتاً خلفنا، فالتفتنا بحذر، ورأينا عيوناً متناثرة قرب هياكل الأشجار الجامدة، سلط أبي ضوء المصباح إليها، فظهرت مجموعة القرود رافعة ذيولها الطويلة، وحينئذٍ أطلق أبي ضحكته الهستيرية وقال بتهكم مخفياً توتره:

ـ إنها تتعقبنا، وكأنها تريد أن نعيد لها صغيرها.

وطلب مني السير خلفه دون اكتراث، وفجأة سمعنا جلبة شديدة وأصوات غريبة، فسدد ضوء المصباح إلى مصدر الصوت، لاحت حيوانات رمادية مكسوة بالشعر تفترس قرداً، فيما لجأت القرود الأخرى إلى قمم الأشجار، ثم عادت الحيوانات الرمادية إلى القرد الميت، وعلت أصواتها وهي تمزقه، وأمست تتصارع ويطرد بعضها بعضاً، وكأن الوليمة لا تكفي الجميع، فأطفأ أبي مصباحه على الفور، وجذبني وأسرع في الخطو، فسرت خلفه مرعوباً، وعرج بنا إلى بطن منحدر شاق، وبعد أن اجتزنا عشرات الأمتار في عرض التل همس بنبرات مرتعشة:

ـ حين تجوع الضباع لا ترحم، ولن تتورع عن انتزاعك من جواري لأنك الأضعف.

صعقني الخوف، وسرى في جسدي دبيب كدبيب أسراب من النمل، ولا شك أن أبي أصيب هو الآخر بالرعب رغم جسارته، فقد كان يمشي محني الظهر، مرتجف الأطراف، وسط درب هابط مكسو بنبات الرا الكثيف، كنا رغم ضوء القمر الباهت نتخبط دون أن نعرف أين تقع نعالنا المبللة، كان الفزع قد أصابنا بالعمى والارتباك، ثم تذكرت قول الفتاة بأن الخوف خطير في البرية، ليس من النحل فقط، بل من جميع الوحوش، ولكني لا أستطيع أن أوقف أبي الذي يجرني جراً ليرغمني على الإسراع في السير، هل سيقبل النصيحة في ذلك الميقات السيئ وهو لا يقبلها في الأوقات العادية من أحد؟ إنه قائد الرحلة، ولا يجوز أن يوقفه فتى صغير لا يفقه شيئاً عن الحياة، دار ذلك في ذهني في جزء من الثانية، ثم نفضت الخوف من نفسي بسرعة، أو كدت أن أفعل، شعرت أن وضعنا حرج جداً، والسكوت أو الخجل يعنيان الموت، وكلاهما خطير كالخوف، وهكذا تجرأت وقلت بصوت حاد:

ـ لا تفزع يا أبي، فقد سمعت أن الحيوانات تشم رائحة الخوف من أجساد المسافرين.

ضحك أبي باستهتار وقال مخفياً توتره:

ـ هذا كلام عارٍ عن الصحة، وعلى كلٍ، لست خائفاً كما تظن، لكن الحذر أمر مشروع.

ثم وقف فجأة، وأمسك مسدسه وشهره بيده، والتفت إلى قمة المنحدر مصغياً، وحينها لم نسمع شيئاً سوى لهاثنا، وشكوت له بأن النباتات

المبللة تؤذي ساقي، فأشار إلى ضوء صغير يلوح بعيداً جداً، قائلاً بضيق:

ـ كن رجلاً يا زيد، لقد باتت المساكن قريبة كما ترى، ولعل ذلك الضوء يتسرب من نافذة منزل عمتك.

قلت بيأس:

ـ ألا ترى كم هو بعيد؟

ـ لكنك تعرف ما يدور في ذهني.

ـ أعرف، مازال الله يرعانا وبوسعه أن يدع المسافة لا تطول.

ـ أرجو أن تكون جادا يا بني.

ركلنا الخوف بعيداً، وسرنا بنشاط، وقد ازددنا عزيمة وإصراراً، تسلحنا بالفكرة التي تدور دائماً في رأس أبي، وهي أننا من سلالة محاطة بالعناية الإلهية، ولن يمسنا أي مكروه، بدا أن كل شيء على ما يرام، وتكلل الأمر بظهور خيال أشجار وسط قاعٍ مستو، وأومأ أبي بجذل إلى الأسفل معلناً عن اقتراب الفرج، وغمرنا الفرح، وأسرعنا في الهبوط، ولم تعد هناك سوى بضعة أمتار تفصلنا عن قعر الوادي، وكدنا نغادر ذلك المنحدر المزعج، حين أطلق أبي صرخة مفاجئة:

ـ آه، ساقي.

ورفع قدمه اليمنى، وأضاء المصباح، فظهرت حية سوداء متحفزة وسط شجيرة را بيضاء، فأطلق عليها النار، ثم خرج من المنحدر قافزاً على قدم واحدة وهو يصيح بتذمر:

ـ لدغت يا زيد، لا أحد ينجو من سم الحيات السوداء.

قلت بخوف:

ـ ما كان يجب أن تطلق النار، حتى لا تلحق بنا الحيوانات.

فضربني على رأسي، قائلاً بغضب:

ـ وهل أدعها تنجو أيها الحمل!

واستند على كتفي وأضاف بصوت مختنق:

ـ قدني إلى تحت شجرة.

أخذته صوب أقرب شجرة، وهو يقفز بقدم واحدة، ويهذي ناظراً إلى السماء بضجر:

ـ أتتخلى عنى يا إلهي في آخر المطاف من أجل إضماري الزنا بامرأة لعوب! أتعاقبني على شيء لم اقترفه!

قلت بثقة عالية:

ـ لم يتخل الله عنك بعد، ستنجو، اصبر وحسب.

ـ هل تسخر مني يا زيد؟ لا أكاد أشعر بساقي! إنها الحية السوداء اللعينة، التي أخفت الشيطان بين أنيابها، وتسللت إلى الجنة حيث كان آدم وحواء يعيشان بهناء.

ولما جلس تحت الشجرة، تشبث بالجزء الأعلى من عضلة ساقه بقوة، وصاح بحدة:

ـ خذ الخنجر واقطع خيطاً من ثوبك واربط هنا، هيا، أسرع...

ففعلت ما أمرني به بسرعة مدفوعاً بصراخه ورغبتي بنجاته أيضاً، كانت ثقتي كبيرة بقدرته على تجاوز تلك المحنة، فالله لن يقتله، لأنه سبحانه هو من صنع تلك الحية الرهيبة التي ساعدت الشيطان على خديعة أبونا آدم كما فهمت، وهو تعالى قادر على إبطال سمها، ولن يتخل عنا بفضل كرامات أجدادنا الأولياء القدامى، هكذا أضمرت في نفسي، وأنا أشد الخيط بيدين راجفتين، فأبعد يدي بعصبية، وشدّ الخيط بقوة، حتى برزت عروق ساقه الزرقاء، ثم استند على جذع الشجرة السميك. دون أن يتوقف عن التأوه والأنين، فقلت بنبرات متلعثمة:

ـ كن رجلاً يا أبي. الله معنا..

ـ لا تخاطبني كما أخاطبك أيها الغبي، أعرف أن الله لن يخذلني، يجب أن أثق به رغم ما ينتابني من شك.

قالها بإصرار اليائس، ثم أطلق تنهيدة عميقة، وتابع متطلعاً إلى المنحدر العالي بقلق:

ـ سنكون محظوظين إن لم تلحق بنا الحيوانات، لا أظن أن بوسعي تسلق الشجرة.

وأخرج ساعته القديمة من جيبه لأول مرة، وتفرس فيها، وأعقب مطلقاً زفرة ضيق:

ـ لقد تجاوزنا منتصف الليل بقليل. خذها يا زيد، إنها لك.

دسستها في جيبي متعجباً من كرمه، فقد كانت أثيرة في نفسه، ولا يدع أحداً يلمسها، نظرت صوبه بامتنان كبير، كانت ساقه المصابة مسترخية على الأرض، ولا يستطيع أن يحركها، وساد قليل من السكون، وما لبث أن أضاف نافخاً بضيق:

ـ تعبت من الحذر، ينبغي أن أنظر إلى موضع اللدغة.

وسدد ضوء المصباح إليها منحنياً، فلاحت نقطة دم صغيرة متخثرة، بحيث لا يمكن لأحد أن يتخيل أن يتسلل الهلاك خلال ثقب لا يكاد يرى، وخاطبني بحزم:

ـ انظر إلى اللدغة، ليتك تكون ولداً شجاعاً باراً لتمص الجرح وتبصق ما يخرج..

ففعلت ما أمرني غير مبالٍ بالسم، وبصقت على الأرض بعض الدم والقيح الأصفر، فيما ظل يحفزني أن أبذل جهداً أكبر، ثم على نحو مفاجئ دفعني صارخاً:

ـ ماذا تفعل يا زيد؟ لقد فات الأوان، لا تدع أمك تتزوج رجلاً من بعدي، ستجد من يطلبها للزواج من أجل الحقول، أما هي فلم يعد فيها رمق أو مطمع.

قلت بتأثر:

ـ لا تسيء الظن بأمي، إنها امرأة مخلصة ولا يمكن أن تفكر بشيء كهذا.

ـ النساء خلقن من ضلع أعوج كما قال النبي. احترس وحسب.

ـ ستنجو دون شك.

ـ لا تحاول خداعي يا بني، اقترب.. ضع راحتك على صدري.

اقتربت ولمست صدره بتهيب، وكادت أصابعي تحترق من حرارته، ثم سلطت الضوء على وجهه، فرأيته يسيل عرقاً، والقطرات تخضب لحيته الخشنة، وقد حال لونه إلى اصفرار وشحوب شديدين، وبعد لحظات شرع جسده يرتجف كالمقرور، وخرج صوته متقطعاً مع اصطكاك أسنانه:

ـ لا تدع جثتي هنا، يجب أن أدفن في قريتي قرب المسجد القديم.

لم أحر جواباً، وبقيت متجمداً أنظر إليه باستنكار، وكأنما لم يعجبه عدم اهتمامي وتقاعسي عن تصديقه، فمد صوبي ذراعاً مرتعشة، وهو يقول بصوت واهٍ رانياً إلى المنحدر بعينين محملقتين:

ـ تراجع قليلاً، ولا تنظر إلى خلفك.

انسحبت خطوتين وأنا أنظر إليه بارتياب، دون أن أدرك ما ينوي أن يفعل، ووقفت أتأمله بخضوع، فرفع مسدسه بضعف شديد، وصوبه نحوي، وخرجت كلماته بعسر:

ـ سامحني يا بني، إنها وراءك.

وقبل أن أنبس بحرف واحد ضغط الزناد، فطق صوت الترباس، ما يعني بأنه فارغ، وهوت كفه بيأس وتحركت عيناه بشكل غريب، وتشنج جسده، ثم ارتخى رأسه ببطء، ورأيت فقاعات بيضاء تخرج من جانبي ثغره المفتوح، وسمعته يهذي بكلمات واهنة، فأمسكت كلمة واحدة فقط من كلامه الأخير قبل أن يسقط ذقنه على صدره ويغرق في صمت رهيب:

ـ .... الرصاص... ....

فأسرعت إلى المخلاة، وأخذت حفنة من الرصاص، وحشوت مخزن المسدس وجعلته جاهزاً للإطلاق، ثم قدمت السلاح إليه، معلناً عن انتهاء مهمتي، كنت قد وصلت إلى لحظة يأس غريبة بحيث لم أعد أخشى فيها أن يصرعني بطلقة الرحمة، لكنه لم يرد. فانتابني قلق شديد، ودار في خلدي بأنه وقع في غيبوبة كتلك التي حدثت في وقت سابق، وفي تلك الأثناء استقامت شعيرات رأسي، وشعرت بشيء يتحرك خلفي، فاستدرت بجسدٍ مقشعر لأرى عيوناً وامضة كثيرة تبعد عني بضع خطوات، كان القمر قد توارى، مفسحاً المجال للعتمة أن تحل في البرية، فسلطت الضوء باتجاهها، وأبصرت جماعة القرود تتقدمها تلك القردة الأم، وفوجئت بشدة، ووجدت نفسي وحيداً أواجه

تلك الحيوانات المتطفلة، بحيث أصبت بالجمود والارتباك، ووقفت بموضعي لا أحرك ساكناً.

ظل ضوء المصباح مسلطاً على القرود، ولم يمنعها ذلك من التقدم باتجاهي ببطء وحذر شديدين، لم يكن شعوري واضحاً وقتئذٍ، وأنا أراقبها تقترب بفضول، لكن الخوف الذي أحسست به قبل قليل فارقني، ليحل محله خليطٌ عجيب من الشك واليقين، بدا الأمر كما لو كنت تشاهد حلماً، وفي الوقت عينه تدرك أنك لست نائماً. ومازلت أجزم أن ما انتابني شيء لا يمكن تفسيره، أو وصفه بالكلمات، حتى وجوه القرود بدت غريبة، وأيضاً طريقة زحفها الهادئة ونظراتها العميقة، وعيونها الفضولية الصغيرة، باختصار، لم يكن في تصرفاتها ما يوحي بأنها في طريقها لتشن هجوماً، بدت القِرْدة الأم الوديعة ترمقني بقلق وفضول كمن يريد أن يسأل عن شيء ما، لا أعرف كيف خطرت ببالي صورة ذلك القرد المشوي، وتطلعت إلى شقيقه العالق على كاهلها وهو يفتش بين زغبها الرمادي عن الحشرات، وبسرعة يرفع كفه الهزيل إلى فمه، ويلتهم كائنات صغيرة لا ألمحها. فاندفع القيء من معدتي، وانتشرت في الأرض بقعة صفراء رهيبة، وفوجئت بالقرود تهجم على ذلك السائل القذر، وجعلت تلحسه بنهم وتتصارع، فانتابني ذعر رهيب، وتذكرت كيف طرحتنا أرضاً وعضتنا قبل أيام معدودة، فلجأت إلى مسدسي المشحون، وصوبته ناحيتها مصمماً أن أدافع عن أبي الذي يغط في غيبوبة عميقة كما ظننت.

وفجأة زعقت القرود وهربت إلى قمم الأشجار القريبة، وشعرت بشيء من الغرور، معتقداً بأنها خافت من سلاحي الخطير. ثم فوجئت بالضباع تهاجمني من كل جانب مطلقة أصواتها الفظيعة، ولا أعرف

كيف استطعت صعود الشجرة بتلك السرعة، بينما سقط المصباح من كفي على الأرض، وبقي ضوءه مشعاً مسلطاً على جسد أبي! كانت تلك مصادفة غريبة، ورغم ذلك اقتربت الحيوانات بجرأة شديدة من مكانه، وتقدم أحدها منه، وجذب قدمه بفكه القوي وسحبه بضع خطوات، فأطلقت النار باتجاهه، وسمعت صوته المريع ورأيته يسقط ويقف ويتخبط مبتعداً، حتى غاص في الظلام، اختفت الضباع الأخرى أيضاً، وكأن الأرض ابتلعتها، وسمعت القرود تسقط من الأشجار فنزلت بسرعة، وأعدت أبي إلى موضعه الأول بصعوبة. كان جسده بارداً ثقيلاً متخشباً، ومازالت عيناه شاخصتين في الفراغ، وثغره مفتوحاً كما رأيته آخر مرة، بدا وكأنه على وشك أن يقول لي شيئاً، وعجبت من سكونه وجموده الغريب. ومع ذلك لم أشك بنجاته، وحاولت أن أوقظه بشتى السبل، صرخت في أذنيه بأن الضباع لن تلبث أن تعود، ولكزته وهززته ثم قرصته بجلد عنقه القاسي، ولكن لم تند عنه أي استجابة، وأظن أني بكيت بجانبه بصوت عالٍ وحرقة شديدة، حتى كاد صدري أن ينفطر. ثم جففت دموعي، وخيل لي أنه سيزجرني عن البكاء، ويحثني أن أكون رجلاً، لكنه لم يفعل، وسمعت زعيق القرود وهي تفر إلى الأشجار، بل وأصوات الضباع الغاضبة وهي تنبعث من الفراغ، وبسرعة أضحت قريبة جداً، وأحاطت بي من كل جانب، وأفواهها مفتوحة، وصرت أدور حول نفسي ماداً ذراعيّ في الهواء وكأني أحمي نفسي من أفكاكها القوية، كان المسدس اللعين في كفي مصوباً إليها بلا جدوى، لقد علق هذه المرة وصار أقل أهمية من عصا أو حجر، وهكذا لم أعد أعول على شيء ليحميني.

أذكر أنني تشبثت بجسد أبي بقوة لأمنع الضباع من أخذه، لكنها كانت تجذبه من الطرف الآخر، واستطاعت أن تجذبني معه بسهولة، فتخليت عنه بيأس بعد أن دفعني أحدها بجسده وكشر أنيابه في وجهي، فشعرت بفزع عظيم وأغمي علي.

الفصل الثامن

إن لم تخني الذاكرة، يمكنني القول أني حين أفقت كانت القرود تقفز حول جسدي بهرج شديد، فيما المصباح مازال مضيئاً رغم ما أصابه من عبث بواسطة أيديها الفضولية، قمت كالمجنون، وصوبت الضوء إلى جذع الشجرة، فلم أجد أبي حيث كان، ولمحت مسدسه مجدولاً على الأرض، فحملته وبحثت في الجوار دون جدوى، عثرت فقط على جثة الضبع الذي أطلقت عليه النار، كان فاغراً فاه مقلوباً على ظهره، والذباب بدأ بالتجمع حول جرحه الغائر في البطن. تركته ومشيت عميقاً في قلب الوادي القاحل، لكن القرود لحقت بي وأجبرتني أن أسير نحو الشرق، ولم أدرك أكانت تهديني إلى طريق النجاة أم الهلاك! ورغم ذلك أطعتها بعد أن يئست من العثور على أبي، أصبت بحال غريب من اللامبالاة، ولم يعد حضورها يشكل قلقاً، رغم ما دار في رأسي ساعتها بأني أختطف وأقاد إلى مكان مجهول، ربما إلى مأواها الذي تعيش فيه. لكني أحسست بأنها تعاملني كما لو كنت فرداً من القطيع.

كان الفجر قد أقبل وشرع الظلام ينحسر ويحل مكانه بياض داكن، ما لبث قطيعنا أن غادر الوادي صعوداً إلى ربوة جرداء واسعة، ثم انتهينا إلى وسط طريق ممهد للسيارات، ولم يصعب على الفتى البشري الذي يعيش في عصر الآلات، أن يكتشف آثارا قديمة لإطارات سيارة، ووقفت برهة أتلصص على الطريق، وكأني ساعتها

اكتشف شيئاً فريداً، لكن القرود أخذت تزعق في وجهي، وتدفعني للصعود بعيداً، فارتقيت بضع خطوات، وفجأة سمعت جلبة سيارة بيضاء قادمة من المنعطف القريب، فتسمرت مكاني بدافع الفضول، ولم أفرح أو أعقد على تلك الآلة الأمل في انتشالي من البرية، كما لم يكن في بالي خطة معينة، وكأني لا أجد فرقاً بين قطعان البشر وقطعان الحيوانات، بل إن أوجه التشابه بينهما تضيق وتتسع وتختلف من مكان إلى آخر، لكن الميول الحيوانية الوحشية تتجلى بوضوح في القفر الأعلى، حتى ليخال لي أنها متطابقة لولا تطور ملموس في سبل العيش لدى القطيع البشري الذي أنتمي إليه. وقد ثبت خلال رحلتي وتجربتي المريرة أن الشقاء يبزغ كالفطر في مناطق الفضيلة والإيمان أكثر من أي مكان آخر رأيته، ووضح لي أن الحيوانات البرية تسعى للمحافظة على بقائها وحسب، بينما الإنسان هنا يدمر الطبيعة والحياة أكثر من أي كائن آخر يعيش في هذا الكون، ويفعل ذلك بدم بارد، وبسعادة مطلقة. لأنه ببساطه يؤمن بأنه كائن سماوي مقدس تنتظره حياة أخرى خالدة. ولعلي في أوقات متفرقة من حياتي ندمت على مفارقتي قطيع القرود.

على كل حال، كان الرجل الذي يقود السيارة أسمر مجعد الشعر، وبجواره يجلس شاب حنطي البشرة وقور الملامح، حتى يمكنك أن تطلق عليه لقب رجل دون أن يلحقك أي تأنيب، وذلك نظراً إلى نضجه المبكر وحب الشباب المنتشر في وجهه المكشر، ولا يظن من يراه أنه ينتمي إلى ذلك الرجل الأسمر بصلة قرابة. كانت السيارة تسير ببطء بسبب وعورة الطريق، وصارت قريبة مني ببضعة أمتار، وجعلت القرود تزعق بتوتر وكأنها تحثني على مواصلة الصعود،

وحانت من الشاب التفاتة وتناهى إلى سمعي صوته الصارخ وهو يخاطب السائق مشيراً إلي:

ـ انظر، هناك فتى بين قطيع القرود!

سمعت الرجل يرد وهو يخفف من سرعة السيارة:

ـ هل تمزح؟

ورفع الرجل بصره، والتقت عيوننا، وأشاح عينيه عني بانزعاج، ثم اختلس النظر إلى وجهي ثانية، وأخذ يتأملني من رأسي حتى أخمص القدمين والعكس، ولمح المسدس القابع في يدي بذهول، بدا محتاراً متجمداً على مقعده، لكنه والحق يقال أبدى رباطة جأش نادرة، ولم يشأ أن يفوِّت على نفسه فرصة القبض على قرد في صورة بشرية، أو كائن شيطاني أو ما شابه، لاسيما والناس هناك يؤمنون بالعفاريت وأرواح الموتى. وبعد أن أعياه التفكير ضرب قبضته على عجلة القيادة بقوة، ثم خرج حاملاً سلاحاً آلياً أكثر فتكاً من مسدسي العتيق، وما لبث أن أطلق النار في الهواء لإخافة القرود، فهربت صاعدة للأعلى، صارخة برعب. لمحت الخوف يطل من عينيه، وهو يراني ثابتاً في موضعي، أراقبه بلا اكتراث، فخاطبني بصوت مضطرب:

ـ اقترب أيها الفتى إن كنت بشرياً، وارم هذا الشيء من يدك.

أطعته، وهبطت باتجاهه، ولاحظت اهتزاز السلاح في كفه، وبسرعة هرول الشاب الذي ظهر طويلاً، وأخذ المسدس المرمي أرضاً، وحاصرني من الخلف. وقفت أمام الرجل بخضوع، فأخذ يفحصني بنظراته، ثم تشجع وجس رأسي ورفع ذقني للأعلى، وكأنه يتأكد أني

فعلاً من أبناء البشر، وما إن اطمأن إلى حالي سمح لي أن أصعد إلى المقعد الأمامي، فجلست جواره صامتاً، في حين ارتمى الشاب بالمقعد الخلفي، وانطلقت السيارة في طريقها، والتفت الرجل أثناء ذلك، وسألني بفضول:

ـ تبدو مصفراً وشاحباً، ماذا حدث لك يا بني؟

تكلمت عما جرى بكل برود، فقال الشاب بصوت حاد:

ـ أجزم بأنه يكذب.

رد السائق بسرعة:

ـ لا تجزم بذلك، سنذهب في الصباح إلى الوادي القاحل، ونرى ما حدث هناك.

وقاد الرجل المركبة دون أن يضيف شيئاً، وغلب عليه الشرود، لم أسألهما بدوري عن شيء، بدوت بليداً غير مبالٍ بما جرى ويجري من حولي، وسمعت الشاب يقول فجأة:

ـ هذا شكل فتى لم يتعرض لأي مكروه، لن أرهق نفسي بالبحث عن شيء غير صحيح.

ـ اسكت يا مالك، إنه مرعوب وحسب، وحتماً لم يأتِ إلى هنا وحيداً، لا تجادلني في هذا الأمر.

وسكت مالك، ولم أهتم بما قاله، ولم تعترني رغبة بالسؤال عن وجهتنا، وكأني أعرف سلفاً هذين الشخصين، وساد الصمت إلى أن

توقفنا قرب ذلك المنحل وتلك الحجرات المتلاصقة الوضيعة، فأطلق الرجل بوق السيارة بخفة للإيحاء بوصوله، فخرجت المرأة والفتاة، وسمعت الأولى تقول بجذل:

ـ أخيراً.

خرج الرجل من السيارة قائلاً بانبساط:

ـ نعم، تأخرنا هذه المرة، لكنا جلبنا لكما شيئاً مدهشاً وجدناه في الطريق.

ونظر إلي ولوح بيده متمتماً:

ـ اخرج يا فتى.

خرجت، فهرولت هند باتجاهي، وهي تصيح بفرح:

ـ أمي، إنه زيد!

وهرعت المرأة إلي بفرح، وقالت مخاطبة زوجها وهي تغالب البكاء:

ـ أعرف، إنه هو.. حمداً لله.

رنا الرجل إليها بخيبة أمل، وقال مندهشاً:

ـ أردت أن أقدم إليك مفاجأة غريبة، لكنك تعرفين هذا الفتى من قبل.

ـ يا ويلي، إنه ابن أخي جعفر. هل حدث لهما شيء فظيع؟

ـ دعونا نتحدث في الداخل. فأنا أتضور جوعاً.

وسرنا ناحية الحجرة، كان الزوجان يتهامسان بخفوت دون أن أعيرهما أي اهتمام، حتى انفصلا بعد لحظات، وذهبت المرأة لصنع الإفطار، وجلس زوجها على الفراش، كان يبدو متعباً ومشوشاً بشكل واضح، وبعد قليل من الصمت حضر الطعام، ونظرت المرأة إلي بذهول، وخاطبت الرجل بقلق:

ـ يا ويلي، نظراته تائهة، أهو مريض؟

ـ ليس تماماً، إنه مصدوم، لقد أخذت الضباع والده أمام عينيه كما يزعم.

ـ حزني عليك يا زيد، أما أخي جعفر، فقد كنت أخشاه أكثر من أي شخص آخر.

ـ سيشفى الفتى عندما يبكي.

ـ يبكي!

ـ نعم.

لا أعرف كيف اكتشف هذا الدواء الغريب، البكاء، علاج المصدومين.. فهو بائع عسل متجول وليس طبيباً نفسياً أو ما شابه، لكن الناس في كل مكان يكتسبون خبرات ومعارف بطريقة ما، ولعله عرف ذلك خلال أسفاره إلى المدن الصغيرة المجاورة. قالت الزوجة بعجب مبتعدة عن الموضوع:

ـ ألا يتحلى مالك بقليل من اللياقة ليحضر للإفطار!

ـ تدركين أنه لا يهدأ حتى أثناء النوم.

كان مالك فعلاً مشغولاً بنقل جرار العسل الفارغة إلى الحجرات الأخرى، ولا يهتم بأي شيء آخر، وعرفت لاحقاً أنه شغوف بأعمال المنحل، وبفعل تفانيه ونشاطه وحساباته أضحى مخولاً بجني العسل من الخلايا والعناية بالنحل وإجراء كافة الحسابات وصفقات البيع، حتى لم يعد والده يجد ما يفعله سوى قيادة السيارة إلى السوق، رأيته في اليوم التالي يدخل وسط القفائر متنكراً بملابس خاصة تقيه من اللسعات، بحيث لا يظهر عضو من جسده، ثم يوقد بخوراً خاصاً ليجبر النحل على الخروج من بيوتها، ويجرف ما تبقى من النحل بواسطة ريشة نسر ناعمة، ثم يقطع شطائر العسل بمنجل صغير، ويضعها وسط طناجر كبيرة، وبعد مرور بضعة أعوام من الرحلة سيكسب شهرة واسعة ويصير لمحصوله علامة تجارية منتشرة في أرجاء البلاد، بحيث صار "عسل مالك" منتجاً معروفاً للأنام، أما أنا فقد خلدت يومئذٍ للنوم بعد عودتي مصدوماً إلى المنحل، ولم أستيقظ سوى بعد مغيب الشمس.

وفي المساء، كانت الحجرة مفعمة بالحركة والحيوية، يغمرها ضوء سراجين متقدين. بدا الجميع منشغلين بأمري، ما عدا مالك، الذي كان منهمكاً بإجراء بعض الحسابات، ويتطلع إلى دفتر صغير يخص عمليات البيع، ما دفع أمه إلى لفت انتباهه قائلة:

ـ هلا تعطينا القليل من وقتك يا مالك؟

رد دون أن يرفع بصره عن دفتره:

ـ لحظة واحدة، سوف انتهي حالاً.

ـ هذا الفتى هو ابن خالك جعفر وهو ضيف هنا، ألا تهتم؟

توقف، ورمقني بنظرة فاترة كأنما ليتأكد إن كنت أستحق اهتمامه، ثم قال باشمئزاز:

ـ أهو حفيد الفقيه الذي نفاك وأبي إلى هنا؟

ـ لا تكن لئيما، لو لم يفعل والدي ذلك، لم تكن نحَّالاً، أبي رجل متمسك بالتقاليد على كل حال، وقد طردنا إلى هنا وقلبه يقطر دماً، ولعله أراد أن يحميني من خالك جعفر، أخشى أن يكون وأمي من عداد الموتى.

ومسحت ما انسكب من دموعها، وغرقت في حزنها الخاص، وصرف مالك بصره إلى دفتره دون اكتراث، وتأثر زوجها قليلاً، وحاول أن يهدئ من سخونة الموقف، فأشار ناحيتي قائلاً:

ـ لا يتحتم أن نعرف شيئاً حتى يشفى الفتى من الصدمة.

لم أهتم بحزن عمتي فوزية وشجنها، كان بوسعي أن أخبرهم أن جدي حي، وأن جدتي مقعدة، لكني لا أتكلم دون أن يقدم لي سؤال عن شيء ما، كنت غارقاً بالصمت المطبق ولا أجد رغبة للكلام. لم يشأ الرجل أن يسألني مراعياً مشاعر امرأته المكتئبة على ما أظن. وسمعت صوت مالك البغيض حين قال بانفعال:

ـ كنا في حال أفضل قبل أن يزورنا هؤلاء الفقهاء دون أن ندعوهم إلى زيارتنا.

ردت أمه قائلة بتأثر:

ـ لا أظن خالك مجنوناً ليأتِ وابنه إلى البرية دون سبب، لابد أن أعرف ذلك بأي حال من الأحوال. لعله كان يحمل أخباراً سيئة.

ـ هذا الفتى المريض يعرف كل شيء.

ونظر مالك إلي بمقت ثم رد بصره إلى الدفتر بسرعة. وحاولت عمتي فوزية أن تقنعه أن لا ذنب لي بما حدث، بدت سعيدة ومكتئبة في آن، وكأن حضوري أعاد لها بعض الحنين إلى ماضيها في قريتنا، وشرعت تتكلم دون توقف، اعترفت إن حزنها على أبي يفوق الوصف، وإنها لم تتوقع زيارته، وعندما رأته عرفته للتو، وخافت أن يقتلها بمسدسه، وروت لنا كيف قاومت إرادة أبيها، واختارت الشاب الفقير"عمر"، وهو ابن فلاح يعمل في حقول والدها الذي أصر أن يبتعدا عن عينيه، ولم تنفع توسلات أمها في ثنيه عن عزمه. وبالفعل جلبتهما سيارة قديمة إلى البرية ورماهما الأهالي في المقهاية، قرب مجموعة مساكن بدائية متناثرة تقع على هضبة جرداء، يسكنها رعاة بائسون يقتاتون على ما تنتجه حيواناتهم، ويشربون المياه الآسنة من البرك والآبار الضحلة القديمة، وبالكاد استطاعوا أن يفهموا كلامهم ومشكلتهم، وظلوا يرتابون منهما ويعتبروهما من الغرباء، كان القليل منهم بمنتهى الطيبة، لكن الغالبية كانوا بمنتهى الوحشية، وهكذا عاشا في ملجأ معتم مخصص للبهائم، واشتغلا في رعي ماشية رجل قاسٍ يدعى صعتر القشم، وكان أجرهما هو فضلات طعامه وشرابه، ولا شيء غير ذلك، وفي كل صباح يسرحان بقطيع ضخم من الماعز إلى التلال المجدبة، وإن ضلت عليهما عنزة يبحثان عنها حتى يجداها، أو

يبيتان ليلتهما في العراء، وذات يوم من أيام الخريف، عثرا على خلية نحل متدلية على شجرة سدر، ولحسن الحظ كان "عمر" يتعهد خلية نحل يملكها أبوه في قريته، لذا تقدم من الخلية بجرأة، وبحث عن الملكة وقص جناحيها كيلا تفر بالخلية، ثم حملها وسط وعاء عريض من الخزف، ولم يجرؤ على نقلها إلى المقهاية، لأن ذلك الرجل الغليظ القلب سيستولي عليها، وما لبث أن صنع لها قفيراً من الطين، ثم تركها في هذا المكان قريباً من شجيرات الراء، وتكاثرت الخلية واتسعت بيوتها، وصار "عمر" يبيع العسل بشكل سري في سوق الخميس، كان يسير إلى هناك متنكراً قاطعاً مسافة طويلة، فيما ترعى هي قطيع الماعز.. وحصلا على بعض المال، فبنيا حجرة قرب الخلايا، وسرعان ما تركا خدمة ذلك الرجل الفظ، وسكنا هناك قرب جرار العسل، وأتاها المخاض في يوم خميس، وحين عاد زوجها من السوق رأى طفله الأول مالك على الأرض، وارتفعت أعداد القفائر، وزادت كمية العسل الذي تنتجه لاسيما في الخريف، وفاضت عن حاجة سوق الخميس، فاضطر عمر أن يبتاع سيارة قديمة، وراح يطوف في الأسواق القريبة، واستكملا بناء بقية الحجرات لتخزين العسل، وأضحى صعتر الغشم يأتي إليهما ليقترض المال، حيث نفق قطيعه وساءت أحواله..

اكتفت عمتي فوزية بهذا القدر من الكلام، ورغم أني كنت أعي كل كلمة تتفوه بها، إلا أن اهتمامي كان فاتراً، ولم أعلق بحرف واحد على ما قيل، كانت تحاول أن تجعلني أشارك في الحديث، لكن استجابتي كانت منعدمة، وهذا بعث لها الكدر، وإثر ذلك خرجت وزوجها للمبيت بمكان ما، وعندما صحوت باكراً رأيت هند نائمة في الزاوية الأخرى،

كانت أنفاسها تتعالى وسط جوقة من أصوات متنوعة تصدر من الخارج. طنين النحل الجاني، ونباح الجرو المزعج، وكلام مالك الذي أفاق باكراً ليتفقد خلايا النحل، ونادت عمتي فوزية على هند، فهبت لتساعدها في بعض الأعمال، وجاء زوج عمتي معلناً أن على الذكور أن يتناولوا إفطارهم سريعاً، لأن هناك عمل خطير في انتظارهم.

وسرعان ما اصطففنا أمام الطعام الحار وأكلنا، وعرفت أننا في طريقنا إلى الوادي القاحل، لنبحث عن الرجل المفقود، وسألت عمتي زوجها باهتمام:

ـ هل ستبحثون عنه في أوكار الضباع؟

ـ يجب أن نعثر عليه أينما كان.

وسألني زوج عمتي قائلاً فجأة:

ـ هل أنت حزين على أبيك؟

ـ لا.

ـ هذا غريب فعلاً، يتحتم أن تحزن وتبكي يا بني.

ـ لِمَ ينبغي أن أبكي؟

أخبرتني الفتاة في وقت لاحق أني كنت بمنتهى الوقاحة وأنا أقول ذلك ببرود، ورغم فظاعة سلوكي كان علي ألا أفوت شيئاً مما قيل مهما بدا مشيناً وغريباً، لم أكن في كامل وعيي، لذا لن أهتم بما سيقال عن شخصي، فالحقيقة طالما تكون بعيدة المنال، ويمكنني أن أعود إلى

صباح ذلك اليوم، ولعله الجمعة كما أفصحت عمتي فوزية، ومن الغريب، أننا في مثل ذلك اليوم خرجنا من قريتنا نبغي زيارتها، ولا أعرف كم أمضينا في هذه الرحلة، أسبوعين، أكثر من ذلك أو أقل، كل هذا لا يهم.. لأن الزمن يضيع أو يفقد أهميته في مثل هذه الظروف.